بريق الفريدة
بمهمات أبواب
العقيدة

عبدالله الغباري
738463635

تأليف
أبي حذيفة زكريا بن حميد الصلاحي

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

بريق الخريدة

بمهمات أبواب

العقيدة

تأليف:

أبي حذيفة
زكريا بن حمد بن فهاد الصلاحي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران:١٠٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء:١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن من أهم الأمور التي يجب على كل مسلم الاعتناء بها علماً وعملاً وتعليماً العقيدة الصحِيحة السليمة من شوائب البدع وغوائل الشبهات حتى يكون المسلم على بينة في أمر دينه، عابداً ربه كما شرع بيقين وطمأنينة، لا سيما في زمان كثرت فيه مضلات الأهواء وصار أهل الشر والبدع يتخطفون جهلة الناس بشبهاتهم المضلة، ورحم الله سلفنا الصالح إذ شمروا لبيان المعتقد الصحيح منذ بدأت بوادر البدع تظهر، فقاموا بردها وبيان زيفها والتحذير من أربابها، وسار على دربهم أهل الحق والديانة من العلماء الربانيين والدعاة

المصلحين، حتى صارت عقيدة أهل السنة منتشرة ظاهرة رغم المكر الكبار من أعداء الدين والعقيدة بدأً من أهل الكفر بأصنافهم وانتهاءً بأهل الشبهات والشهوات من المنتسبين للملة، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ورغبةً في المشاركة في الخير ورجاءً للثواب من الله، أحببت أن أدلي بما أقدر عليه، فجمعت بعض الأبواب المهمة في المعتقد الصحيح مع شيءٍ من التفصيل والتقسيم، وإيراد شبه المخالفين المبطلين مع ما تيسر من الرد عليهم وبيان بطلان طريقتهم وفساد شبههم، متطفلاً في ذلك على كتب أهل العلم، رفع الله قدرهم وجزاهم عن الإسلام وأهله خيراً، وقد أوردت في هذه الرسالة عشرة أبواب من أهم أبواب العقيدة، على حسب ما تقدم ذكره، وكنت قد قمت بجمعها وتدريسها لإخواننا في مسجد عمر بن الخطاب بمدينة قصيعر من ساحل حضرموت، فرغب بعض إخواننا أن تكون رسالة مطبوعة وأشار علي بذلك من تعز علي مشورته، فاستعنت بالله في ذلك، راجيا ربي الكريم أن يجعلها لوجهه خالصة، وفي ميزان راقمها وقارئها مثقلة، إنه خير مسؤول وهو حسبي ونعم الوكيل.

كتبه

أبو حذيفة زكريا بن

حميد بن فهاد الصلاحي الحبيشي

حفظه الله تعالى

المبحث الأول: التوحيد

التوحيد في اللغة: مصدر من وحد يوحد توحيداً، فهو «موحد»، والتوحيد مصدر للفعل وحّدَ؛ أي جعل الشيء واحداً، فمعنى توحيد الله: أي جعل الآلهة إله واحداً وهو الله -جل وعلا-، وكل الآلهة دونه باطلة.

والتوحيد في الشرع والاصطلاح: هو إفراد الله بما يختص به من ربوبية وألوهية وأسماء وصفات.

مسألة: هل لفظ التوحيد مصطلح شرعي ورد في القرآن والسنة؟

الجواب: نعم ورد في حديث ابن عباس في الصحيحين: «**لما بَعَثَ النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **معاذاً إلى اليمن فكان مما قال له وليكن أول ما تدعوهم أن يوحدوا الله**»، وورد في صحيح مسلم عن جابر في تلبية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع وفيه: «**فأهل رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بالتوحيد**».

فائدة: أطلق السلف على التوحيد عبارات عدة، منها: السنة، والعقيدة، وأصول الدين، والفقه الأكبر، والإيمان، والشريعة، وقد يطلقون هذه الألفاظ على ما هو أوسع من التوحيد من العقيدة ومنهج السلف.

مسألة: ما هو الفرق بين التوحيد والعقيدة؟

الجواب: العقيدة أعم من التوحيد فهي تشمل التوحيد الذي هو إخلاص العمل لله، وزيادة كالكلام على الإيمان والغيبيات، أما التوحيد فهو خاص بأقسامه الثلاثة وما يضادها من الشرك.

وإذا قال أهل العلم: كتب التوحيد؛ يقصدون الكتب التي تتكلم عن التوحيد والشرك فقط، والكتب التي تتكلم عما هو أوسع من ذلك من توحيد وشرك وعلامات الساعة وغيبيات وأسماء وصفات يقال لها كُتُب العقيدة، فالأصول الثلاثة، والقواعد الأربع، والأصول الستة، وكشف الشبهات، وكتاب التوحيد، وتطهير الاعتقاد وما كان على منوالها يقال لها كتب توحيد؛ لأن الكلام فيها يدور حول توحيد الربوبية، والألوهية، والشرك، وأقسام الشرك، ولمعة الاعتقاد، والواسطية، والطحاوية، والسفارينية وأضرابها تسمى كتب عقيدة؛ لأنها شملت التوحيد وزيادة.

مسألة: إلى كم ينقسم التوحيد؟

الجواب: قسمه بعض أهل العلم إلى قسمين، وبعضهم إلى ثلاثة: فالذين جعلوا التوحيد قسمين جعلوا:

١- توحيد الربوبية، والأسماء والصفات نوعاً واحداً وسموه: «توحيد المعرفة والإثبات»؛ فالمعرفة هي الربوبية، والإثبات: هو الأسماء والصفات.

٢- وأما توحيد الألوهية فسموه: «توحيد القصد والطلب»؛ لأنه هو المقصود من خلق الخلق، وهو أهم مطلوب.

ومنهم من جعله ثلاثة أقسام «ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات».

مسألة: لماذا أفرد المتأخرون توحيد الأسماء والصفات عن الربوبية، وجعلوه قسماً مستقلا؟

الجواب: لأهميته ولكثرة من خالف فيه من أهل البدع لذلك جعله أهل العلم قسماً ثالثاً.

مسألة: هل تقسيم التوحيد معروف عن السلف أم أنه حادث؟

الجواب: تقسيم التوحيد معروف عند السلف، وأول من استعمل هذا التقسيم وصرح

به هو أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ هجرية، ثم ابن بطة، وابن مندة، ثم ابن عبد البر رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

مسألة: ما هو الدليل على هذا التقسيم؟

الجواب: الدليل عليه الاستقراء والتتبع لأدلة الكتاب والسنة، حيث نظر العلماء في جميع الأدلة في الكتاب والسنة التي تدل على التوحيد فوجدوها لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة.

تنبيه (١): حاول بعض الصوفية والرافضة وغيرهم من أهل البدع إنكار هذا التقسيم، وقالوا إنه تقسيم مبتدع، وإن أول من جاء به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة ٧٢٨ هجرية، وهذا من جهلهم أو كذبهم وتلبيسهم؛ لما تقدم أن أول من صرح به الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أي قبل شيخ الإسلام بـ ٤٠٠ سنة.

تنبيه (٢): التوحيد هو أول واجب على العبد، ولا يدخل الإسلام إلا به، دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وخالف أهل البدع من المتكلمين وأهل الكلام من المعتزلة، والأشاعرة، والجهمية الذين خاضوا في الصفات فقال بعضهم: أول واجب على العبد النظر؛ أي أن يعرف الله بقلبه، وقال آخرون أول واجب هو: القصد إلى النظر؛ أي التفكر في مخلوقات الله للوصول إلى معرفة الله،

وقال آخرون أول واجب هو: الشك؛ أي أن يتشكك أنه لا يوجد إله، ولا معبود، ثم بعد الشك ينظر في مخلوقات الله، ثم يعرف الله، ثم يوحد الله، وهذا أسوء الأقوال؛ لأنه قد يستمر فيه الشك ويتمكن من قلبه وقد يفضي إلى الكفر الدائم.

فائدة: أهل الكلام سموا بذلك؛ لأنهم أكثروا من الكلام والخوض في أمور الدين بطرق عقلية لا فائدة منها ولا علم نافع فيها، لذا توارد كلام السلف على ذمهم.

فائدة: أجمع المسلمون على الإقرار بتوحيد الربوبية، وأقر به جمهور الأمم الماضية، ولم ينكر

وجود الله عياذاً بالله إلا النمرود، وفرعون، وملاحدة الشيوعية المعاصرة الذين يقولون لا إله والحياة مادة.

فائدة: توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن توحيد الربوبية. ومعنى ذلك أن من أقر بالربوبية وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله يلزمه ألا يعبد إلا الله، أما من كان قد حقق توحيد الألوهية بحيث جعل عبادته كلها لله فقد صار موحدا توحيد الربوبية لأنه ما عبد الله وحده إلا لاعتقاده أنه الخالق وحده.

* أسماء توحيد الألوهية:

١- توحيد الألوهية، وهو الأشهر، ٢- توحيد العبادة، ٣- توحيد أفعال العباد،

٤-التوحيد الطلبي، ٥- توحيد القصد والعمل، ٦- التوحيد الخاص.

* أسماء توحيد الربوبية:

١- توحيد الربوبية وهو الأشهر، ٢- توحيد الله في أفعاله، ٣- توحيد المعرفة، ٤- توحيد الإثبات، ٥- التوحيد العلمي الخبري، ٦- التوحيد العام؛ لأن عامة الخلق مقرون به.

مسألة: ما تعريف أنواع التوحيد؟

١- **توحيد الألوهية**: هو إفراد الله بالعبادة.

٢- **توحيد الربوبية**: هو إفراد الله بأفعاله من الملك، والخلق، والتدبير، وغير ذلك من أفعاله.

٣- **توحيد الأسماء والصفات**: هو إفراد الله بأسمائه وصفاته بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف.

مسألة: من هم الذين خالفوا في توحيد الألوهية من الطوائف المنتسبة للإسلام؟

الجواب: عامة الفرق والطوائف الإسلامية عندهم خلل في توحيد الألوهية وهم في ذلك ما بين مستقل ومستكثر، ويمكن القول باختصار أنه لم يقم بتوحيد الألوهية قولاً وفعلاً ومعنى إلا أهل الحق أهل السنة والجماعة السائرون على طريقة السلف؛ وما من طائفة من طوائف أهل البدع إلا وعندهم خلل في التوحيد وضعف أو عدم توحيد بالكلية إلا توحيد الربوبية كبعض فرق الرافضة والصوفية.

مسألة: ما هو التوحيد عند أهل البدع؟

الجواب: عامة أهل البدع إذا ذكروا التوحيد إنما يريدون به توحيد الربوبية، ولا يتطرقون لتوحيد الألوهية، ولا يقررونه في كتبهم من حيث الجملة، وأما من حيث التفصيل فكما يلي:

أولاً: التوحيد عند المعطلة أهل الكلام «الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، ومن سلك مسلكهم»: فإنهم يجعلون التوحيد ثلاثة أقسام:

١- توحيد ذات، ٢- توحيد صفات، ٣- توحيد أفعال.

وهذه الأنواع الثلاثة كلها داخلة في توحيد الربوبية، وزيادة على ذلك فإن مرادهم بتوحيد الصفات تعطيلها عن معانيها الصحيحة وتأويلها بمعانٍ باطلة.

ثانياً: التوحيد عند الصوفية: التوحيد عند عوامهم توحيد الربوبية، وأما غلاتهم فالتوحيد عندهم ثلاثة أقسام، ويعبرون عنه بالفناء:

١- الفناء عن إرادة السِوى؛ أي إخلاص العمل لله، وألا يراد بالعمل سِوى الله، ويسمون هذا توحيد العامة، ويرون أنه لا يليق بالأولياء وإنما هو لعامة الناس، ومع هذا فإنهم قد أفسدوا عبادة العامة بالشرك والخرافة ولا تجد صوفيا عاميا فما فوقه إلا وعنده نوع من الشرك، والله المستعان.

٢- الفناء عن مشاهدة السِوى؛ بمعنى أن أحدهم لا يشاهد في الكون إلا الله، فكل شيء

أمامه هو الله، ويسمونه توحيد الخاصة، وهذا فيه رائحة الحلول ونوع من الكفر، لذلك يقولون الله في كل مكان، وقد حاول بعضهم أن يعتذر لبعض من وقع منه هذا الكلام، حيث قالوا إنهم يقصدون بالفناء عن مشاهدة السِوى؛ الوصول إلى مرتبة الإحسان بحيث تعبد الله كأنك تراه، ولو كان هذا المعنى هو المقصود في كلامهم لكان مقبولاً، ولكنهم عبروا بعبارات صريحة تخالف هذا المعنى، وأنه من قوة فنائه فَني عن الموجودات فصار يشاهد كل شيء أمامه أنه الله، حتى قال بعضهم: لو غاب الله عن نظري طرفة عين لما عددت نفسي مؤمناً والعياذ بالله.

٣- الفناء عن وجود السِوى: فيفنى بحيث لا يحس بوجوده مع غير السِوى، يريدون بالسِوى الله تعالى، وهذا أعظم أنواع الكفر، ومعناه: لا يوجد عبدٌ وربٌ ولا خالق ومخلوق بل كل شيء هو الله، وهذه عقيدة الحلول والاتحاد، وأن الله قد اتحد وامتزج بكل شيء،

وهذا أعظم أنواع الكفر، لم يصل إلى هذا الكفر حتى اليهود والنصارى، ويسمون هذا النوع توحيد خاصة الخاصة، والقائلون بهذا كفار بالإجماع وهم الغلاة من الصوفية.

حتى نقل عن بعضهم قوله: ما في الجبة إلا الله: يقصد نفسه، وابن عربي رأس البلاء في هذه الفكرة فقد ألف رسالة سماها «**إيمان فرعون**» حيث قال ما مضمونه: لما قال فرعون: «أنا ربكم»، عرف حقيقة التوحيد فإنه فني عن وجود السِوى؛ يعني عرف أنه ليس ثم موجود إلا الله، فصار هو الله لأنه حل فيه.

ثالثاً: التوحيد عند الفلاسفة والباطنية: التوحيد عندهم هو أن تعتقد أن وجود الله وجود مطلق؛ والوجود المطلق يكون في الذهن ولا حقيقة له في الخارج، وهذا كفرٌ أكبر، وقد أجمع المسلمون أن الباطنية أكفر من اليهود والنصارى حتى إن الرافضة يكفرونهم، وأما غلاة الصوفية الذين يقولون بالحلول والاتحاد، فإنهم يتفقون معهم من حيث الجملة.

رابعاً: التوحيد عند بعض أهل البدع المعاصرين «كالإخوان والسرورية ومن تأثر بهم»:

يُقرُّون بالجملة بأنواع التوحيد الثلاثة لكنهم زادوا في التوحيد قسماً رابعاً وهو توحيد الحاكمية، وجعلوه ديدناً لهم وسُلّماً للخروج على ولاة الأمور المسلمين، مع أنه داخل تحت توحيد الربوبية وليس قسماً مستقلا.

وأول من جعل مسألة الحاكمية شعاراً لهم الخوارج الأوائل الذين خرجوا على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحت شعار «**لا حكم إلا لله**» وهي كلمة حق أريد بها باطل.

تنبيه: جماعة التبليغ على طريقة الصوفية من حيث الجملة وإن كان بعض أفرادهم أحسن حالاً من بعض.

*****

المبحث الثاني: الشرك

تعريف الشرك: يعرفه العلماء بتعاريف عدة، وكما تقدم أن بعضهم يُعرف الشيء بضده، وبعضهم بلازمه، وبعضهم يعرف الشيء بنوع من أنواعه، لكن هناك شيء يسمونه التعريف الجامع، فالتعريف الجامع للشرك هو: اتخاذ شريك مع الله فيما يختص به من ربوبية وألوهية وأسماء وصفات. فكل من صرف شيئاً من خصائص الله لغير الله فقد وقع في الشرك.

مسألة: ما هو أصل الشرك؟

الجواب: قرر جماعة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم: أن أصل الشرك وقاعدته: التعطيل؛ أي تعطيل الله عن خصائصه، أو عن شيء منها، وصرفها لغيره سواءً من خصائص الربوبية، أو الألوهية، أو الأسماء والصفات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مدارج السالكين «الجزء الأول ص ٣٧٩»: «**وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بغير علم**» إذاً فالشرك أصله التعطيل، والتعطيل نتج عن القول على الله بلا علم.

مسألة: ما هو أول شرك وقع في الأرض؟

الجواب: أول شرك وقع في الأرض في قوم نوح عليه السلام عن طريق الغلو في الصالحين، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح،

فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموهم بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت».

ثم وقع الشرك للمرة الثانية: في قوم إبراهيم عليه السلام: حيث عبدوا الكواكب، وكانوا يعتقدون أن الكواكب لها أرواح فبنوا بيوتاً للعبادة وجعلوا فيها أصناماً، وزعموا أن أرواح الكواكب تحل في هذه الأصنام فعبدوا الأصنام من دون الله على أن فيها أرواح الكواكب.

ثم وقع للمرة الثالثة: في جزيرة العرب خاصة بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزمن على يد سيد خزاعة، عمرو بن لُحي الخزاعي، حيث ذهب إلى البلقاء في الأردن من الشام فوجدهم يعبدون أصناماً ويزعمون أنها تنفع وتضر فأخذ منها مجموعة نصبها عند الكعبة، ووزع بعضها في قبائل العرب فصاروا يعبدونها من دون الله.

وعمرو بن لحي هو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام في الجزيرة، لذلك جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب**»، وقصبه: أي أمعاءه.

فائدة: الشرك بالله قد يكون في الربوبية، وهو على ثلاثة أنواع:

١- **المشاركة**: كأن يعتقد أن غير الله شارك الله في الخلق والملك.

٢- **المعاونة**: كأن يعتقد أن غير الله أعان الله في بعض الخلق والملكوت.

٣- **الاستقلال**: كأن يعتقد أن غير الله تفرد بالخلق والملك، وهذا من أعظم أنواع الكفر بالله.

وقد أبطل الله هذه الأنواع الثلاثة واجتث جذورها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾ [سورة سبأ:٢٢]. ونفى الاستقلال والتفرد في الملك

بقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ ونفي الشراكة، ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾؛ أي معين.

قال بعض أهل العلم: هذه الآية اجتثت عروق الشرك من أساسه ولم يبقى لمشرك بعدها حجة.

فإن كل من تدعونهم وتعبدونهم من دون الله لم يعاونوه ولم يملكوا شيئا مستقلا، وليس لهم شراكة مع الله ومن كان هذا حاله فكيف يكون إلهاً.

وقد يكون الشرك في الألوهية، وهو الغالب في الأمم: بأن يعبد مع الله غيره.

وأصل شرك الألوهية: محبة غير الله كمحبة الله، أو أشد، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ...﴾ [سورة البقرة:١٦٥]. قرر جماعة من أهل العلم منهم: شيخ الإسلام وغيره: أن أصل الشرك في توحيد الألوهية هو شرك المحبة؛ لأنهم أحبوا غير الله أكثر من حب الله فصرفوا لهم العبادة من دون الله. فالشخص قد يقع في المعصية بسبب حبه لفلان، ويقع في الكفر بسبب حبه لفلان، وبعضهم دخل في النصرانية لأنه عشق امرأة نصرانية، والشرع ضبط الحب بضوابط شرعية، من لم يلتزمها قاده الحب إلى المهالك، وقد امتدح الله المؤمنين لمحبتهم الخالصة لله بقوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [سورة البقرة:١٦٥].

وقد يكون الشرك في الأسماء والصفات: كمن ينسب لله الزوجة والولد، تعالى الله عما يقولون علواً كبير، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [سورة الإخلاص:١-٤].

أقسام الشرك

الشرك في الأصل ينقسم إلى قسمين:

١- شرك التعطيل: وهو أن يعبد غير الله استقلالا، ولا يعبد الله، وهذا أعظم أنواع الكفر، وقيل له تعطيل؛ لأنه عطل الله عن خصائصه وجعلها لغيره سبحانه.

٢- شرك التشريك: وهو عبادة غير الله مع الله، وينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك الطاعة: وهو أن تطيع غير الله فيما حرم الله، والحكم فيه على صاحبه بحسبه، فإن أطاعه في كفر كان كفراً، وإن أطاعه في البدعة كان بدعة، وإن أطاعه في الكبيرة كان كبيرة، وهكذا بحسبه.

مسألة: شرك الطاعة هل يكون مخرج من الملة؟

الجواب: بحسبه فإذا أطاع فلاناً في كفر بالله خرج من الملة، وإن أطاعه فيما دون الكفر يُحكم عليه بحسب ما وقع فيه، وهذا يحصل لكثير من الناس ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

القسم الثاني: شرك العبادة: هو اتخاذ شريك مع الله، وهو ينقسم إلى قسمين:

١- شرك أكبر مخرج من الملة، ٢- شرك أصغر لا يخرج من الملة.

والشرك الأكبر ينقسم إلى قسمين: ظاهر، وخفي.

والشرك الأكبر الظاهر ينقسم إلى قسمين:

١- ظاهر في الأقوال: كدعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله.

٢- وظاهر في الأفعال: كالسجود لغير الله والذبح لغير الله.

والشرك الأكبر الخفي: كالنفاق الأكبر، وكمحبة غير الله مثل حب الله أو أشد.

والشرك الأصغر ينقسم إلى قسمين أيضاً:

١- شرك أصغر ظاهر، ٢- شرك أصغر خفي.

فالظاهر يكون في الأقوال والأفعال، والظاهر في الأقوال على قسمين:

١- لفظي: لا يقصد صاحبه الشرك كقول أحدهم إذا أعجبه شيء: الله والبيت، أو الله والمسجد، والصواب أن يقال: اللهم بارك على بيت...

٢- اعتقادي: كالحلف بغير الله على سبيل التعظيم.

أما الشرك الأصغر الخفي فمثاله: الرياء في العبادات، ويسمى هذا النوع شرك الإرادات والنيات، وهو الذي قال عنه ابن القيم في الجواب الكافي: وأما شرك الإرادات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجوا منه.

وأما الشرك الأصغر في الأفعال فمنه تعليق التمائم.

تنبيه: بعض أهل العلم يقسم الشرك إلى ثلاثة أقسام:

١- أكبر، ٢- أصغر، ٣- خفي، ويجعل الخفي خاص بالرياء، ويعرفون الخفي بالرياء الأكبر، والرياء الأصغر، والأقرب والله أعلم، أن الشرك الخفي داخل في الشرك الأكبر والأصغر، وليس قسماً مستقلا والأمر واسع.

فائدة: الرياء ينقسم إلى قسمين:

١- رياء أكبر: وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهو رياء المنافقين لقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة الفتح:١١].، وهو كفر مخرج من الملة.

٢- رياء أصغر: كالرياء في العبادات، وهذا لا يخرج من الملة.

مسألة (١): ما هو ضابط الشرك الأصغر؟

الجواب: في ضابط الشرك الأصغر ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه كل ما جُعلَ سبب لنفع أو ضر، ولم يجعله الشرع سبباً: كتعليق التمائم.

القول الثاني: أنه كل وسيلة للشرك الأكبر.

القول الثالث: أنه كل ذنب سماه الشرع شركاً، ولم يبلغ الحد الذي فيه صرف العبادة لغير الله، وهذا أجمع الأقوال وأحوطها والله أعلم.

مسألة (٢): ما هو الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر؟

الجواب: الفرق بينهما من أربعة أوجه:

الوجه الأول: الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال لقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام:٨٨]. والشرك الأصغر يحبط العمل الذي وقع فيه فقط.

الوجه الثاني: الشرك الأكبر مخرج من الملة، والأصغر لا يخرج من الملة.

الوجه الثالث: الشرك الأكبر صاحبه حلال الدم والمال، والأصغر لا يحل دمه ولا ماله.

الوجه الرابع: الشرك الأكبر صاحبه مخلد في النار ومحرمة عليه الجنة، والأصغر ليس كذلك.

مسألة (٣): هل يدخل الشرك الأصغر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ...﴾ [سورة النساء:٤٨].

الجواب: في ذلك قولان لأهل العلم:

منهم من قال: لا يغفر لعموم الآية، ومنهم من قال: هو داخل تحت المشيئة، والآية خاصة بالشرك الأكبر.

والقول الأول هو الأقرب لعموم الآية، إلا أن صاحب الشرك الأكبر يخلد في النار، وصاحب الشرك الأصغر لا يخلد في النار، وهذا ترجيح جماعة من أهل العلم منهم ابن تيمية وابن القيم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

مسألة (٤): هل الشرك الأصغر أعظم من الكبائر مطلقاً؟

الجواب: الصواب والله أعلم هو التفصيل: وهو أن يقال: جنس الشرك الأصغر أعظم من جنس الكبائر من حيث الجملة، أما من حيث التفصيل فإنه قد يوجد في بعض الكبائر ما يكون إثمه وفحشه أشد وأعظم من بعض أنواع الشرك الأصغر، مثلا: الزنى أو شرب الخمر أعظم إثماً من قول: ما شاء الله وشئت، ويدل على هذا أن العقوبة المترتبة على بعض الكبائر أشد من العقوبة المترتبة على بعض أنواع الشرك الأصغر، وهذا اختيار شيخ الإسلام كما في المجموع، والله أعلم.

فائدة: أضرار الشرك الأكبر، كثيرة منها:

١- أن الله لا يغفره إن مات عليه صاحبه لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ...﴾ [سورة النساء:٤٨].

٢- صاحبه مخلد في النار، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ [سورة البينة:٦].

٣- الجنة محرمة عليه، لقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [سورة المائدة:٧٢].

٤- صاحبه حلال الدم والمال، لقوله تعالى: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ ...﴾ [سورة التوبة:٥].

٥- صاحبه لا أمان له في الدنيا ولا في الآخرة، لقوله تعالى في أهل التوحيد: ﴿ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام:٨٢].

ومفهوم الآية يدل على أن المشرك لا أمن له في الدنيا والآخرة.

أقسام الشرك

شرك تشريك

شرك عبادة وهو عبادة غير الله مع الله وهو على قسمين:

شرك أكبر: وهو أكثر ما جاء في القرآن مخرج من الملة

- **ظاهر**
  - **في الأقوال** كدعاء غير الله فيما لايقدر عليه إلا الله.
  - **في الأفعال** كالسجود والذبح لغير الله.
- **خفي** كرياء المنافقين ومحبة غير الله أو أشد.

شرك أصغر لا يخرج من الملة

- **ظاهر**
  - **في الأقوال**
    - **اعتقادي** كالحلف بغير الله إذا لم يعظم المخلوق كالله أو أشد.
    - **لفظي** كقولك الله والمسجد.
  - **في الأفعال** كتعليق التمائم.
- **خفي** كيسير الرياء ويسمي شرك الإرادات والنيات.

شرك تعطيل

شرك طاعة وهو طاعة غير الله فيما حرم الله وحكمه بحسبه: فإن أطعت غير الله في كفر كان كفرا، أو في بدعة كانت بدعة، أو في معصية كانت معصية كبيرة أو صغيرة.

أن يعبد غير الله فقط ويسمى شركا من باب التوسع والقسمة وإلا فليس فيه حقيقة المشاركة.

المبحث الثالث: الأسماء والصفات

العلم بالأسماء الحسنى والصفات العلى من أشرف العلوم، وأجلها قدراً، وهي أصل للعلم بكل معلوم، كما قرر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره.

قال ابن القيم: «في بدائع الفوائد ١\١٦٣»: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصلٌ للعلم بكل معلوم.

* القاعدة العامة عند السلف في باب الأسماء والصفات: «**إثبات كل ما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات بلا زيادة ولا نقصان**»، **ويعبر عنه بعض أهل العلم بقولهم «أسماء الله وصفاته توقيفية»**.

قواعد وضوابط في باب الأسماء الحسنى

١- أسماء الله كلها حسنى:

ومعنى حسنى: أي بلغت في الحسن الغاية، فلا يوجد اسم أحسن منها لا لفظاً ولا معنى.

٢- أسماء الله كثيرة ليست محصورة بعدد معين، وأما حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين مرفوعاً قال «**إن لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة**».

فالمراد بالحصر هنا أن هذا العدد من الأسماء لها خاصية وميزة على غيرها من الأسماء، وهي أن من أحصى هذا العدد دخل الجنة.

مسألة: ما معنى إحصاء الأسماء الحسنى؟

إحصاؤها يكون بثلاثة أمور:

١- حفظ ألفاظها، ٢- حفظ معانيها، ٣- التعبد بمقتضاها.

مسألة: كيف يكون التعبد بمقتضاها؟

أن يستشعر العبد عظمة الله من خلالها في سائر أحواله فلا يتكلم بالإثم لعلمه بأن الله سميع ولا يفعل منكراً لعلمه أن الله بصير ولا يرائي بعمله لأن الله عليم رقيب وهكذا.

مسألة: إلى كم تنقسم أسماء الله الحسنى؟

أسماء الله تنقسم إلى أقسام بعدة اعتبارات:

الاعتبار الأول: تنقسم الأسماء الحسنى من حيث الإفراد والتركيب إلى ثلاثة أقسام:

١- **أسماء مفردة**: مثل الرحمن، الكريم، السميع؛ أي يتكون الاسم من كلمة واحدة.

٢- **أسماء مضافة**: مثل أحسن الخالقين، خير الناصرين، مقلب القلوب، فلا تستعمل إلا مضافة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعوا بها ولا يدعو الله إلا بأسمائه فمقلب القلوب من أسماء الله المضافة.

٣- **أسماء مقترنة بغيرها أو بضدها**: فلا يجوز أن يسمى الله بها منفصلة، وإنما مقترنة بضدها، مثل: المحيي المميت، الخافض الباسط، المعز المذل، الاسم مع قرينه وضده؛ لأنه لا يحصل الكمال فيها إلا باقترانها. فلا يقال من أسماء الله الخافض وإنما يقال: الخافض الباسط.

الاعتبار الثاني: أقسامها باعتبار التعدي واللزوم: وتنقسم إلى قسمين:

١- **أسماء لازمة**: تدل على الاسم والصفة فقط. وهي كل اسم إذا حُوّلَ للفعل الماضي كان فعلا لازماً يكتفي بالفاعل ولا يحتاج للمفعول به، مثل: الحي والقدوس، فيقال حيي

الله، وتقدس الله.

٢- **أسماء متعدية**: تدل على الاسم والصفة والأثر المترتب عليها، وهي كل اسم إذا حول للفعل الماضي احتاج إلى فاعل ومفعول به، مثل: الخالق والعليم، فيقال: خلق الله الأرض، وعلم الله كل شيء.

الاعتبار الثالث: أقسامها باعتبار الخصوص والعموم، وتنقسم إلى قسمين:

١- **خاصة بالله تعالى**: فالأسماء الخاصة: هي التي لا يجوز لأحد من الخلق أن يتسمى بها، وهي الأسماء التي تدل على كمال الجلال والعظمة، مثل الله والرحمن والقدوس، ومثل الأسماء المركبة مثل: ذو الجلال والإكرام والمضافة: مثل: أحسن الخالقين، ومالك الملك والمقترنة، مثل: المعز المذل.

٢- **مشتركة**: وهي كل اسم يجوز للخلق أن يتسموا به، ولكن بشرطين هما:

الشرط الأول: ألا تحلّى بـ(الـ) فلا يسمى رجلٌ: الرحيم، والحكيم، ويجوز: رحيم وحكيم.

الشرط الثاني: ألا يقصد بها كمال الصفة: إنما يراد بها مجرد الاسم فقط.

فائدة: قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب: [(الفوائد) الجزء الأول / ص١٩]: والأسماء المذكورة في هذه السورة «أي الفاتحة» هي أصول الأسماء الحسنى، وهي الله، الرب، الرحمن، فاسم «الله» متضمن لصفات الألوهية، «والرب» متضمن لصفات الربوبية، واسم «الرحمن» متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

مسألة: هل أسماء الله مشتقة أو جامدة، وما معنى ذلك؟

الجواب: عقيدة السلف أن أسماء الله مشتقة، ومعنى مشتقة: أي أنها تدل على صفات، فكل اسم يتضمن صفة، وخالفت المعطلة فقالوا: بأنها جامدة لا تدل على صفة.

وأما الجامدة: فمعناها أنها لا تتضمن صفات وليس لها معنى، فأسماء الله، وأسماء الرسول، وأسماء القرآن كلها مشتقة لتضمنها معانٍ وصفات عظيمة، وأما أسماء الخلق فجامدة يراد بها الاسم فقط، والعلامة على الشخص؛ لأن الرجل قد يسمى باسم وهو على خلاف معناه، فيسمى مثلاً صادق وهو كاذب.

قواعد وضوابط في باب صفات الله

صفات الله كلها عليا لا نقص فيها بوجه من الوجوه لا احتمالا ولا تقديرا؛ لأنها تدل على معانٍ كاملة في الجلال والجمال والكمال لله تعالى، وهي كثيرة لا يمكن حصرها؛ لأنها تتعلق بأفعال الله، وتشتق منها، وأفعال الله لا منتهى لها، وكذا صفاته، ولهذا كان باب الصفات أوسع من باب الأسماء.

أقسام الصفات

ثبوتية وهي كل صفة أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله.

- **ذاتية** هي كل صفة يتصف الله بها دائما وأبدا.
  - **معنوية** «عقلية» وهي كل صفة ثبتت بالشرع والعقل لدلالتها على الكمال المطلق كالعلم والعزة والحكمة.
  - **خبرية** هي كل صفة ثبتت بالشرع ولا يمكن للعقل إثباتها بدون الشرع كالوجه واليدين وضابطها «ما كان مسماه لنا أجزاء وأعضاء».
- **فعلية** هي كل صفة تتعلق بمشيئة الله إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها.
  - **كمال مطلق**
    - **معنوية** «عقلية» وهي ماثبتت عقلا وشرعا كالإحياء والخلق.
    - **خبرية** ماثبتت شرعا فقط كالاستواء والنزول.
  - **كمال مقيد** وهي صفات المقابلة التي لا تتضمن كمالا إلا عند المقابلة كالمكر والكيد والخداع.

سلبية هي كل صفة نقص نفاها الله عن نفسه ونفاها عنه رسوله.

- **متصلة** كالنوم والتعب والعجز.
- **منفصلة** كالزوجة والولد والشريك.

تنبيه: لم يكن السلف يقسمون الصفات هذا التقسيم؛ لأنهم كانوا يؤمنون بجميع الصفات مطلقاً، وأول من قسم الصفات إلى ذاتية وفعلية هو ابن كلاب، حيث أثبت الصفات الذاتية، وأوّل الصفات الفعلية، فلما اشتهر هذا التقسيم استعمله أهل العلم على طريقة السلف في الإثبات والرد على المخالف من باب حسن السبر والتقسيم.

مسألة: هل كل شيء أضيف إلى الله يكون صفة له؟

الجواب: لا؛ لأن ما يضاف إلى الله قسمين:

١- إضافة معاني، وهي صفاته، وهذا النوع يسمى إضافة الصفة إلى الموصوف.

٢- إضافة أعيان، وهي المخلوقات: كناقة الله، ورسول الله، وبيت الله، فهذه ليست صفات لله وإنما هي من مخلوقاته، ويقال لهذا النوع إضافة المخلوق إلى الخالق إضافة تشريف.

مسألة: هل تتفاضل الصفات؟

الجواب: مذهب السلف أنها تتفاضل بعضها على بعض، فمثلا:

صفة الرحمة أفضل من صفة الغضب، وصفة الحلم أفضل من صفة الانتقام، وفي الحديث القدسي: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»، وقد تتفاضل صفة واحدة فمثلا صفة «الرزق» تتفاضل في نفسها فيرزق الله هذا أكثر من هذا وهذا أقل، وهذا تناله رحمة الله أكثر مما ينال هذا، وهكذا ...إلخ.

فائدة: جميع أهل البدع عندهم تعطيل وتحريف في باب الصفات، وهم ما بين مستقل ومستكثر.

فائدة: توحيد الأسماء والصفات يقوم على ثلاث أسس:

١- الإثبات للأسماء والصفات بدون تمثيل.

٢- التنزيه لله بدون تعطيل.

٣- عدم السؤال عن الكيفية.

مسألة: ما هي نواقض توحيد الأسماء والصفات؟ وما معناها؟

الجواب: نواقضه أربعة:

١- **التمثيل**: وهو أن تجعل صفات الخالق كصفات المخلوق، وهذا كفر أكبر من أعظم أنواع الكفر، وأول من قال بالتشبيه متقدمو الرافضة الاثني عشرية، وتولى كبر ذلك داود الجواربي وهشام بن الحكم الرافضيان.

٢- **التعطيل**: وهو أن تفسر صفات الله بخلاف ظاهرها بلا دليل.

٣- **التحريف**: ويكون لألفاظ الصفات بتغيير حركات بعض الحروف، أو بتحريف المعنى الحق إلى معنى باطل، وهذا هو الغالب.

٤- **التكييف**: ومعناه أن يتخيل في ذهنه لذات الله، أو لصفة من صفاته هيئة وشكلاً معينًا يتخيله في ذهنه بما لا نظير له، وهذا التخيل فاسد باطل؛ لأن الله ليس كمثله شيء، وفي هذا الباب يقولون: كل ما خطر ببالك أو دار بخيالك فالله بخلاف ذلك.

مسألة: بماذا تتفق الأسماء والصفات، وبماذا تفترق؟

الجواب: يتفقان في أمور، منها:

١- أن الأسماء والصفات توقيفية.

٢- أن الأسماء والصفات ليستا محصورة بعدد معين.

٣- أن كلاهما يجوز الاستغاثة والاستعاذة بهما، فيقال: بك أستغيث، وبرحمتك أستغيث، وأعوذ بك، وأعوذ بعزتك.

ويفترقان في أمور أهمها:

١- الصفات أكثر من الأسماء «باب الصفات أوسع من باب الأسماء».

٢- الصفة تشتق من الاسم، والاسم لا يؤخذ من الصفة، فالسميع نشتق منه صفة السمع وصفة الاستواء لا نشتق منه اسما فلا يقال: من أسماء الله: المستوي.

٣- الصفة تؤخذ من أفعال الله، والاسم لا يؤخذ منها، فقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [سورة الفجر:٢٢]. نشتق من الفعل جاء صفة المجيء لله يوم القيامة ولا نشتق اسم الجائي.

٤- يجوز التعبيد للأسماء، ولا يجوز للصفات، فنقول: عبد الرحمن ولا نقول عبد الرحمة.

٥- الأسماء تُدعى، والصفات لا تُدعى، فتقول: يا غفور، ولا يجوز أن تقول يا مغفرة الله.

مذاهب أهل التعطيل في باب الأسماء والصفات

التعطيل: هو تأويل أسماء الله وصفاته وتفسيرها بغير معانيها الصحيحة.

والتعطيل ينقسم إلى قسمين:

١- تعطيل كلي: لجميع الأسماء والصفات كما حصل من غلاة الجهمية، وغلاة الباطنية، وغلاة الفلاسفة.

٢- تعطيل جزئي: لجميع الصفات كما فعلت المعتزلة أو لكثير من الصفات كما هو الحال عند عامة أهل التعطيل من أشاعرة وغيرهم.

فائدة: أول ما ظهرت مقالة التعطيل في أوائل المائة الثانية بعد ظهور الخوارج، والشيعة، والقدرية، والمعتزلة، والمرجئة. وأول من أظهرها الجعد بن درهم مولى سويد بن غفلة، وقد

قتله أمير العراق خالد بن عبد الله القسري ذبحاً يوم عيد الأضحى على الزندقة في سنة ١١٨ هجرية.

مذاهب أهل التعطيل

١- **الجهمية، والباطنية من الرافضة**: ينكرون جميع الأسماء والصفات إلا أن الجهمية غير الغلاة يثبتون لله صفة الوجود فقط.

٢- **غلاة الجهمية والباطنية**: ينكرون جميع الأسماء والصفات حتى صفة الوجود، ويقولون في الله لا موجود ولا معدوم، قالوا: لأنه لو قلنا موجود شبهناه بالموجودات، ولو قلنا معدوم شبهناه بالمعدومات ففروا بذلك مما زعموا، ووقعوا فيما هو أشد كفراً منه، حيث شبهوا الله بالممتنعات والمستحيلات تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

تنبيه: ذكر شيخ الإسلام بصيغة التمريض: أن الجهم أثبت اسمي الخالق والقادر ليتوصل إلى تقوية بدعته الأخرى وهي القول بأن العبد مجبور.

٣- **غلاة الغلاة من الفلاسفة والباطنية والقرامطة**: قالوا يوصف الله بالنفي، ولا يوصف بالإثبات، لا يقال: الله حي، وعالم، وقادر، وإنما يقال: ليس بميت، وليس بعاجز، وليس بجاهل.

ومعلوم لغة وعرفا أن النفي المحض، والإكثار منه نقص وليس بكمال.

٤- **الحلولية، والاتحادية، من الصوفية**: الذين يعتبرون من أكفر خلق الله؛ حيث جعلوا أسماء الله وصفاته هي كل اسم وصفة للمخلوق «كل شيء في الخالق في المخلوق، وكل شيء في المخلوق في الخالق».

حتى قال ابن عربي:

ألا كل قول في الوجود كلامه * سوى علينا نثره ونظامه**

وقال قبحه الله: فيعبدني وأعبده، ويحمدني وأحمده، عياذاً بالله فأي كفرٍ بعد هذا.

وقال: الحق يتصف بجميع صفات العبد، والعبد يتصف بكل صفات الرب.

فمنتهى قولهم: الكفر الأعظم، وتعطيل الله عن كل كمال، وهذا القول قد اشتهر عن بعض غلاة التصوف: كابن عربي، وابن سبعين، والتلمساني وابن الفارض صاحب التائية.

٥- **مذهب الغلاة من متقدمي الرافضة الاثني عشرية**: مذهبهم التمثيل حيث جعلوا صفات الخالق كصفات المخلوق، وأول من أظهر ذلك هشام بن الحكم الرافضي، وداود الجواربي، ولهم في ذلك حكايات كفرية يقشعر الجلد لسماعها، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا وسبحانه وتعالى عما يصفون.

٦- **مذهب المعتزلة**: إثبات جميع الأسماء الحسنى لله، وإنكار جميع الصفات باسم التأويل، ووافقهم في ذلك ابن حزم الظاهري، وهو مذهب الإباضية من الخوارج، والزيدية، والإمامية الاثني عشرية.

٧- **مذهب جمهور الأشاعرة**: إثبات جميع أسماء الله الحسنى مع سبع صفات، وإنكار البقية باسم التأويل، وهذه السبع مجموعة في قول بعضهم:

حي عليم قدير والكلام له * إرادة وكذا السمع والبصر**

ولكنهم في الحقيقة إنما يثبتون ألفاظها، وأما معانيها فقد حرفوها بطرقهم العقلية، فأثبتوها ألفاظاً بلا معانٍ صحيحة، بحجة أن العقل يقبل هذه السبع، ولا يقبل ما سواها، وهذا باطل صراح.

تنبيه: بالنسبة لمتقدمي الأشاعرة: أثبتوا جميع الصفات الذاتية، وحرفوا الصفات الفعلية.

تنبيه: بعض متأخري الأشاعرة: مشوا على مذهب الماتريدية.

٨- **مذهب الماتريدية**: أتباع أبي منصور الماتريدي، أثبتوا الأسماء وثمان صفات، السبع التي أثبتها الأشاعرة وزادوا واحدة، وهي صفة التكوين،

ومعناها عندهم: إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود فإن تعلقت بالحياة سميت إحياء وبالموت إماتة وقس على ذلك، وعلى هذا بعض متأخري الأشاعرة.

٩- **مذهب الكلابية**: أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهم قبل الأشاعرة، والأشاعرة تلاميذهم لكنهم خير من الأشاعرة وأقرب للحق، ويثبتون جميع الأسماء وجميع الصفات الذاتية، ويحرفون الصفات الفعلية باسم التأويل، ومنهم من يسمي الصفات الفعلية: صفات لله لكن يقولون هي أوصاف منفصلة عن الله؛ أي أنها ألفاظ بلا معنى.

فائدة: الكلابية يفرقون بين الوصف والصفة: إذا قالوا صفة؛ فالمراد عندهم الصفات الذاتية التي يتصف الله بها لفظاً ومعنى، والأوصاف؛ هي الصفات الفعلية، وهي التي تنسب إلى الله لفظاً بلا معنى.

١٠- **مذهب المفوضة**: أثبتوا جميع الأسماء والصفات لكن جعلوها ألفاظا بلا معانٍ، فقالوا: لها معنى لكن لا يعلمه إلا الله، وقولهم هذا من شر الأقوال لما فيه من تجهيل الرسول والصحابة، وتصوير القرآن أنه كتاب يُقرأ ولا يُفهم ولا معنى له، وهذا يفتح الباب لكل مبطل ليرد ما شاء من الشرائع تحت هذا الغطاء.

ولهذا قرر شيخ الإسلام أن قولهم شر أقوال المعطلة لما تقدم.

*****

المبحث الرابع: الإيمان

الإيمان في اللغة: هو الإقرار والتصديق، وقد يقترن بعمل، وأما من عرف الإيمان لغة بالتصديق فقط فليس بصواب، وقد نقد شيخ الإسلام هذا التعريف في كتابه «الإيمان» من بضعة عشر وجهاً، بين فيها خطأ الاقتصار على هذا التعريف.

الإيمان شرعاً: هو اعتقاد بالقلب وقولٌ باللسان، وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

عبارات السلف في تعريف الإيمان تدور على أربعة أقوال

القول الأول: الإيمان قول وعمل: ويريدون بالعمل عمل القلب والجوارح.

القول الثاني: الإيمان قولٌ وعملٌ ونية.

القول الثالث: الإيمان قولٌ وعملٌ واتباع للسنة.

القول الرابع: التعريف المتقدم: اعتقادٌ بالقلب ... إلخ، وهو يجمع سائر الاقوال.

تنبيه: القول بأن الإيمان يزداد بالطاعات، وينقص بالعصيان فيه توسع، وأولى منه وأحوط ما تقدم، أنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، حتى لا يظن ظان أن الإيمان لا يزداد إلا بالطاعات الكثيرة، ولا ينقص إلا بالمعاصي الكثيرة، وليس كذلك بل الطاعة الواحدة تزيد الإيمان، والمعصية الواحدة تضعف الإيمان.

فائدة: الطاعات تتفاضل، وكذلك المعاصي تتفاوت، فكلما كانت الطاعة أعظم زاد بها الإيمان أكثر، وكلما كانت المعصية أكبر كان نقصان الإيمان بها أشد،

وبالنية قد تعظم الطاعة أو تقل، وكذلك المعصية، كما قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رب عمل صغير عظمته النية، ورب عمل عظيم حقرته النية».

تنبيه: ذُكر عن بعض أهل العلم القول بأن الإيمان يزداد ولا ينقص، قالوا: لأن الأدلة جاءت بذكر الزيادة ولم يذكر فيها النقصان، وهذا قياس باطل لمخالفته للأدلة، ولأن كل ما كان قابلا للزيادة فهو قابل للنقصان، وما زاد إلا لأنه كان ناقصا قبل زيادته والجمهور على خلافه، وأنه كما يزيد فهو ينقص وهو الصواب الذي يدل عليه الشرع والعقل والواقع والله أعلم.

مسألة: من هم المخالفون في باب الإيمان من أهل البدع؟

الجواب: المخالفون كثرٌ وتصل أقوالهم إلى أحد عشر قولا ومرد هذه الأقوال من حيث الجملة إلى قولين:

١- الغلاة في باب الإيمان: وهم الخوارج والمعتزلة.

٢- أهل التفريط وهم المرجئة: وكل فرقة تندرج تحتها طوائف.

الفرق الضالة في باب الإيمان

أولا: المرجئة: وهم فرق شتى اتفقوا في أصل الإرجاء، واختلفوا في بعض التفاصيل، وسموا مرجئة من الإرجاء وهو التأخير، لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، وأول ما ظهرت مقالة الإرجاء في أواخر عصر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، واختلف في أول من قال بالإرجاء،

فقيل إنه: ذر بن عبد الله الهمداني، وقيل سالم الأفطس، وقيل حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة، وجميعهم كوفيون، وفي عصر واحد.

والخلاصة: أن الإرجاء فكرة نشأت في أواخر عصر الصحابة على لسان بعض من عاصر أواخر زمن الصحابة، ولا يفهم من هذا أنه حصل من الصحابة، وإنما ممن عاصرهم ممن هو في طبقة التابعين، وممن لم يتبع الصحابة بإحسان، والتابعون على قسمين: تابعون بإحسان وهم الذين يثنى عليهم ويذكرون بالخير.

وتابعون بغير إحسان ممن وقع في هوى وبدعة فلا يثنى عليهم ولا يشملهم الفضل الوارد في حق التابعين. لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ [سورة التوبة:١٠٠]. وإنما يقال لهم تابعون لكونهم في ذلك العصر، أي في الزمن الذي يتبع زمن الصحابة فالمراد بوصفهم بالتابعين المعنى اللغوي لا الشرعي، والله أعلم.

وقد تفرقت المرجئة إلى فرق منها:

١- مرجئة الفقهاء: وهذا الوصف يطلق على أبي حنيفة وأصحابه ممن قال بقوله في هذه المسألة من الفقهاء.

* وملخص قولهم: أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب، والعمل ليس شرطاً للإيمان، وإنما هو ثمرة الإيمان يعني من مستحبات الإيمان، ولكنهم يقولون: بأن العبد يثاب على الطاعة، ويعاقب على المعصية لأجل ذلك يجب عليه فعل الأوامر وترك الزواجر، مع أن الإيمان عندهم لا يزيد، ولا ينقص، ولا يتفاضل.

٢- الكلابية: يقولون بقول مرجئة الفقهاء.

٣- البُهيسية: من الخوارج يقولون بقول مرجئة الفقهاء.

٤- الماتريدية: قالوا الإيمان تصديق بالقلب مع إذعان وتسليم والقول شرط لإجراء

الأحكام في الدنيا، والعمل ثمرة للإيمان، وليس شرطاً لكنهم يقولون: بأن الإيمان يزيد وينقص.

٥- الأشاعرة: اختلفت أقوالهم إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول متقدمي الأشاعرة: فإنهم يقولون بقول السلف.

القول الثاني: الصالحية من الأشاعرة: ومعهم جماعة: قالوا بقول الجهمية من أن الإيمان معرفة القلب فقط، ولا يشترط القول والعمل، وهذا من أسوأ الأقوال.

القول الثالث: متأخرو الأشاعرة: استقر قولهم على مذهب الماتريدية، الذي تقدم.

٦- الكرامية: الإيمان عندهم قولٌ باللسان فقط، ولو لم يعتقد أو يعمل.

٧- الجهمية: الإيمان عندهم معرفة القلب فقط ولا يشترط فيها قول ولا عمل.

ولما قيل للجهمية أليس إبليس قد عرف الله؟ فهل هو مؤمن عندكم؟

قالوا: إبليس كفر بالمخالفة لما امتنع عن السجود، وبهذه المخالفة كفر، ولم يكفر بالتكذيب، وهذا من تلبيسهم.

٨- غلاة الصوفية: يقولون بقول الجهمية بل أسوأ من ذلك، فإن الرجل منهم قد يصل إلى درجة الفناء بحيث تسقط عنه الواجبات ولا يخاطب بالشريعة.

٩- الرافضة الاثنا عشرية: مضطربون كثيراً في باب الإيمان فهم مرجئة مع من كان على معتقدهم، حتى قالوا: حب علي والحسين لا يضر معه معصية، -

لذلك تجدهم أكثر الناس بعداً عن الالتزام بتعاليم الدين - بل يقولون: لو اجتمع الناس على حب علي لما خلق الله النار.

ثم هم مع من لم يكن معهم، على عقيدة الخوارج فمن ليس على طريقتهم فهو كافر.

فهذه تسع فرق كلها تندرج في المرجئة أهل التفريط والتمييع.

ثانياً: الغلاة: وهم الخوارج، والمعتزلة، والزيدية من الشيعة:

١٠- الخوارج: وافقوا السلف في أن الإيمان قولٌ، واعتقاد، وعمل، وخالفوهم بقولهم: إن الإيمان لا يزيد، ولا ينقص، ولا يتفاضل، وفاعل الكبيرة خارج من الإسلام داخل في الكفر فإن مات على ذلك خُلّد في نار جهنم.

١١- المعتزلة والزيدية: قالوا بقول الخوارج إلا أنهم يقولون فاعل الكبيرة خرج من الإيمان، ولكنه لم يدخل في الكفر بل هو في منزلة بين منزلتين فإن مات على ذلك خُلّد في النار إلا أن عذابه في النار أقل من عذاب الكافر الأصلي.

فائدة: أصل ضلالة المرجئة في باب الإيمان أنهم قصروا الكفر بالله على شيء واحد وهو التكذيب، فقالوا: لا يكفر العبد إلا بالتكذيب لله ولرسوله وللإسلام، ومن لم يكذب فهو مؤمن كامل الإيمان ولو عمل ما عمل.

والذي تدل عليه الأدلة وعليه معتقد السلف أن الكفر ليس مقتصراً على التكذيب بل يكون بعدة أمور، منها: التكذيب، والجحود، وإنكار بعض أمور الدين، والتلفظ ببعض الأمور، ويكون ببعض الأفعال كمن يسجد لغير الله، والاستحلال لما حرم الله، وغيرها، فقصرهم الكفر على التكذيب مخالفٌ للمنقول والمعقول.

فائدة: أصل ضلال الخوارج والمعتزلة في باب الإيمان قولهم بكفر فاعل الكبيرة، وأن الإيمان إما أن يبقى كله أو يذهب كله.

مسألة: ما حكم الاستثناء في الإيمان؟

أولا: معنى الاستثناء في الإيمان هو أن يقول القائل: أنا مؤمن إن شاء الله، وأما حكم الاستثناء فافترق الناس فيه إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: لا يجوز الاستثناء؛ لأن ذلك معناه الشك في الإيمان، والشاك ليس بمؤمن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ [سورة الحجرات:١٥]. أي لم يشكوا. وهذا قول المرجئة: أنه لا يجوز أن تقول إن شاء الله بعد قولك: أنا مؤمن.

القول الثاني: واجب: حتى لا يقع العبد في تزكية نفسه، والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [سورة النجم:٣٢]. وهذا قول متأخري الكلابية، وقد قال به بعض العلماء.

القول الثالث: التفصيل: إن كان الاستثناء من باب الشك فيحرم، وإن كان من باب الإخبار والإقرار فيجب، وإن كان لمجرد التعليل فيجوز، ويكون معناه: أنا مؤمن بمشيئة الله، وهذا القول هو معنى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره العثيمين في شرح السفارينية، وهو الصواب والله أعلم.

تنبيه: هذه المسألة جاء بها أهل البدع، ولم يكن السلف يتطرقون لمثل هذا، لكن لما جاءت الفرق الضالة وقاموا ببذر هذه الخلافات والتدقيق على بعض الكلمات، اضطر السلف إلى ذكرها وتوجيهها.

*****

المبحث الخامس: الشفاعة

الشفاعة لغةً: مأخوذة من الشفع ضد الوتر.

وشرعاً: هي التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة.

وسميت شفاعة؛ لأن من يقوم بها اثنان والاثنان شفع، وهما المشفوع له وهو صاحب الحاجة والشافع.

شروط الشفاعة

الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع والعقل، ولكنها لا تكون إلا بشرطين شرطهما الله في كتابه، وهما:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، وللمشفوع أن يُشفع له، لقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [سورة البقرة:٢٥٥].

الشرط الثاني: رضى الله عن الشافع والمشفوع، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [سورة الأنبياء:٢٨]، ولا يرتضي الله إلا أهل التوحيد، وأهل الإسلام، لقوله تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [سورة مريم:٨٧]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العهد شهادة ألّا إله إلا الله وهي التوحيد، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴾ [سورة الزمر:٧]. وقد جمع الله هذين الشرطين في قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [سورة النجم:٢٦]. فجمعت الإذن والرضى.

الفرق الضالة في باب الشفاعة

عامة أهل الإسلام يثبتون الشفاعة الأخروية التي منها إخراج العصاة من أهل التوحيد من النار، وخالف في ذلك الخوارج والمعتزلة، والزيدية من الشيعة، وأنكروا بعض أنواع الشفاعة، واشتد إنكارهم للشفاعة التي يخرج بها عصاة الموحدين من النار، وإنكارهم لهذا النوع من الشفاعة يتفرع عن أصلهم الفاسد في الوعيد الذي حاصله: أن فاعل الكبيرة بكبيرته خرج من الإسلام في الدنيا مخلد في النار في الآخرة، إلا أن المعتزلة يقولون: يكون عذاب فاعل الكبيرة في النار دون عذاب الكافر الأصلي وهذا تحكم بلا دليل، ولهم في إنكار الشفاعة شُبهٌ ستأتي مع الجواب عليها.

مواطن الشفاعة

للشفاعة سبعة مواطن وهي:

١- عند الموت: تشفع له «**لا إله إلا الله**» إن كانت آخر كلمة للعبد، لما جاء في الصحيحين عن أبي ذر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**»، وفي الحديث الآخر: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة**» رواه أحمد وغيره عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند أبي داود: «**دخل الجنة**».

٢- بعد الموت، عند الصلاة عليه: يشفع له من يصلي عليه بدعائهم إذا كانوا أربعين فأكثر من أهل التوحيد، لما في مسلم عن ابن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه**» أي قبل

دعاءهم. وفي حديث عائشة عند مسلم: «**أمة من الناس يبلغوا مائة**».

٣- في القبر: يشفع للمؤمن في قبره ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الشهادة في سبيل الله: لما جاء عند النسائي بسند صحيح من حديث راشد بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**».

الأمر الثاني: الرباط في سبيل الله : من مات مرابط في سبيل الله كما في مسلم عن سلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**»، و جاء بنحوه من حديث فضالة بن عبيد عند أبي داود وغيره بسند صحيح بلفظ: «**كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر**».

الأمر الثالث: من مات يوم الجمعة وليلتها لحديث عبد الله بن عمرو عند أحمد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر**»، والحديث حسّنه جماعة من أهل العلم.

٤- شفاعة في ساحة الحساب يوم القيامة: لفصل القضاء، وهي الشفاعة العظمى التي خُصَّ بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٥- شفاعة قبل الحساب: في السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب كما في الصحيحين عن ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ رَهْطٌ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ رَجُلٌ وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقُلْتُ: هَذِهِ أُمَّتِي فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ**

إِلَى هَذَا الْجَانِبِ الْآخَرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

٦- الشفاعة بعد الحساب: لفتح أبواب الجنة، كما في مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فأكون أول من يستفتح باب الجنة».

٧- الشفاعة لإخراج عصاة الموحدين من النار: والأدلة على ذلك متواترة ومن أشهرها ما في الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدم فَيَقُولُونَ: اشفعَ لنا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ فَيَأْتُونِّي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تشفع فَأَقُول يارب أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فأفعل ثمَّ أَعُود فأحمده بِتِلْكَ المحامد وأخر لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يا رب أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المحامد وأخر لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يا رب أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ من خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فأفعل ثمَّ أَعُود الرَّابِعَة فأحمده بِتِلْكَ المحامد وأخر لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يارب ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ».

٨- الشفاعة على الصراط: زاد بعضهم هذا الموضع، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون أول من يجوز الصراط ويجوز الناس بعده.

أقسام الشفاعة

- شفاعة في الدنيا
  - شفاعة حسنة: في أمور الخير وهي من أعظم القربات كما في الصحيحين عن أبي موسى مرفوعا «اشفعوا تؤجروا» وفي حديث ابن عمر «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس». وقد جمع الله ذكر هاتين الشفاعتين الدنيويتين في قوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [سورة النساء:٨٥].
  - شفاعة سيئة في الأمور المحرم وهي مذمومة مطلقا وحكمها بحسب ما يتوصل إليه فقد تكون كفرا أو شركا وقد تكون بدعة أو معصية وفي الصحيحين عن أسامة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلم قال له زاجرا: «أتشفع في حد من حدود الله». لما أراد أن يشفع للتي سرقت.
- شفاعة في الآخرة
  - شفاعة مثبتة للمؤمنين الموحدين. وسيأتي تقسيمها في الصفحة التي تليها.
  - شفاعة منفية عن الكافرين والمنافقين وجميع الآيات التي فيها نفي الشفاعة فالمراد بها هذه كقوله تعالى: «فما تنفعهم شفاعة الشافعين».

الشفاعة المثبتة

شفاعة خاصة برسول الله

الشفاعة العظمى لأهل الموقف يفصل بينهم ودليلها ما في الصحيحين عن أبي هريرة وأنس وحذيفة وهي المقام المحمود الذي خص به رسولنا وسمي محمودا لأن جميع الخلائق تحمده عليه.

فتح باب الجنة فإنه أول من يستفتح باب الجنة كما في صحيح مسلم عن أنس.

شفاعته لعمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب كما في الصحيحين عن العباس.

شفاعة يشفع فيها رسول الله وغيره من الأشخاص والأعمال

- **شفاعة لإخراج عصاة المؤمنين الموحدين من النار.** وهذه سيأتي تقسيمها.
- **شفاعة لعدم دخول النار.** وهذه سيأتي تقسيمها.
- **شفاعة لرفع الدرجات في الجنة.** وهذه سيأتي تقسيمها.

يشفع فيها أربعة شفعاء:

- **شفاعة أرحم الراحمين.**
- **شفاعة الأنبياء.**
- **شفاعة الشهداء.**
- **شفاعة الصالحين من أهل الجنة.**

ودليل هذه ما في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يقول الله ((**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبقى إلا أرحم الراحمين**)) وجاء في الشهيد أنه يشفع في سبعين من أهله كما في حديث المقداد.

الشفاعة لرفع الدرجات في الجنة

شفاعة النبي

ﷺ

بدعائه لبعض أصحابه

كما جاء في صحيح

مسلم من حديث أم سلمة

في دعائه لأبي سلمة

وفيه «وارفع درجته

في المهديين».

وفي الصحيحين

عن أبي موسى أنه

ﷺ

دعا لأبي عامر الأشعري

فقال «واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك».

شفاعة الولد الصالح

لوالديه بالدعاء لهما

كما عند أحمد وغيره عن

أبي هريرة مرفوعا «إن

الرجل لترفع درجته

في الجنة فيقول أنَى إليَ

هذا فيقال باستغفار ولدك لك».

حفظ القرآن والعمل به

يشفع لصاحبه في رفع

درجاته في الجنة كما في

حديث عبد الله بن عمرو

مرفوعا «يقال لقارئ

القرآن اقرأ وارتقِ ورتل

فإن منزلتك عند آخر

آية تقرأها».

الشفاعة بعدم دخول النار وتتنوع إلى تسع شفاعات

١ - **شفاعة النبي، لأناس ألا يدخلوا النار كما** في قصة عكاشة بن محصن.

٢ - **شفاعة الأطفال،** لمن صبر من والديهم لحديث أبي هريرة في مسلم مرفوعا «**صغارهم دعاميص الجنة يلقى أحدهم أباه أو أبويه فيأخذ بثوبه فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة**».

٣- **سورة البقرة وآل عمران،** كما في مسلم عن أبي أمامة أنهما «**تأتيان يوم القيامة تحاجان في أصحابهما**».

٤ - **الصبر على فقد الولد،** لحديث أبي هريرة في الصحيحين مرفوعا «**لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحله القسم**» وحديث أبي سعيد مرفوعا «**ما من امرأة تقدم ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجابا من النار قالت امرأة: واثنين قال واثنين**».

٥ - **الصبر على البنات وتربيتهن،** لحديث عائشة في الصحيحين مرفوعا «**من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترا من النار**».

٦ - **المحافظة على صلاتي الفجر والعصر،** لحديث عمارة في مسلم مرفوعا «**لن يلج النار أحدا صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها**».

٧- **البكاء من خشية الله،** لما رواه الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعا «**لن يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع**». وهو حديث حسن لغيره.

٨- **كمال التوكل على الله،** لحديث ابن عباس في الصحيحين مرفوعا في السبعين الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب قال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**».

٩- من شهد بدرا والحديبية من الصحابة، لحديث أم مبشر عند مسلم مرفوعا «**لن يلج النار أحد شهد بدرا والحديبية**».

الشفاعات المحتملة لعدم دخول النار أو الخروج منها

ملازمة ترديد الأذان والدعاء بعده

لحديث جابر في البخاري، وفيه:

«**حلت له شفاعتي يوم القيامة**».

الصبر على لأواء المدينة وشدتها

كما في مسلم عن أبي هريرة مرفوعا

«**لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا**».

شبهات منكري الشفاعة والرد عليها

إنكار الخوارج والمعتزلة للشفاعة متفرع عن أصل من أصولهم وهو قولهم إن فاعل الكبيرة مخلد في النار فلذلك أنكروا الشفاعة لإخراج عصاة الموحدين من النار، لأن إثبات الشفاعة في إخراج الموحدين من النار ينقض عليهم هذا الأصل، فأنكروا الشفاعة حتى لا ينتقض عليهم هذا الأصل الباطل الذي أصّلوه.

وأوردوا بعض الشبه ليستدلوا بها على إنكارهم للشفاعة، منها:

الشبهة الأولى: قالوا جاء النص في القرآن أن من دخل النار لا يخرج منها، كما في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [سورة السجدة:٢٠]. وكقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ [سورة المائدة:٣٧]. وكقوله تعالى: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [سورة الزخرف:٧٧]. وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة البقرة:١٦٧].، فما الجواب؟

والجواب: أن يقال لهم هذه الآيات التي ذكرتموها وأمثالها إنما وردت في شأن الكفار كما هو ظاهر في سياق الآيات لمن قرأ ما قبلها وما بعدها، ولا نختلف معكم في الكفار أنهم لا يخرجون من النار، والشفاعة التي نثبتها إنما نثبتها للمؤمن الموحد العاصي لا للكافر، فإن قالوا: فاعل الكبيرة كافر خارج من الإسلام، فيقال لهم: هذا حكم باطل؛ لأنه مخالف لحكم الله وحكم رسوله، فإن الله ذكر القتل وهو من أعظم الكبائر ولم يحكم على المتقاتِلين من أهل الإسلام بالكفر، بل سماهم مؤمنين وإخوة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ... إلى قوله تعالى فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ ولو

كانوا كفاراً لأمر بقتالهم لا بالصلح بينهم، فهل يعقل أن يوصينا الله ويأمرنا لنصلح بين الكفار، ولم يكن ليسميهم أخوة لنا، وأيضاً قد حكم الشرع بعقوبات على بعض أهل الكبائر، كجلد الزاني، وقطع يد السارق، لو كانت كفراً لأمر الله بقتل فاعل ذلك، لكونه مرتداً، لا مجرد عقوبته، فتبين بهذا بطلان قولكم بتكفير صاحب الكبيرة، وهو أصلكم الذي بنيتم عليه القول بإنكار الشفاعة، وإذا بطل الأصل بطل الفرع.

الشبهة الثانية: قالوا قد وردت آيات صريحة في نفي الشفاعة، كقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾ [سورة الشعراء:١٠٠]. وقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [سورة المدثر:٤٨]. ، وقوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [سورة غافر:١٨]. وقوله: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [سورة البقرة:٢٥٤]. فكيف تعارضون صريح الآيات بالأحاديث، والقرآن مقدم على السنة؟

والجواب من أوجه:

الوجه الأول: يقال لهم استدلالكم بهذا ناتج عن جهلكم باللغة والشرع وسوء فهمكم للأدلة أو تجاهل منكم وتعمد للتلبيس، فإن جميع الآيات الواردة في نفي الشفاعة إنما وردت في سياق ذكر الكفر والكفار، وواضح جداً لمن قرأ ما قبلها وما بعدها من الآيات، ولم تأت أي آية نافية للشفاعة عن المؤمنين.

الوجه الثاني: أن يقال لهم: بل وردت آيات تثبت الشفاعة لأهل الإيمان بشروط كما تقدم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [سورة الأنبياء:٢٨]. وقوله: ﴿ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [سورة النجم:٢٦]. ، فالاستثناء فيه إثبات واستدراك، وهذا معلوم لكل من له أدنى فهم للغة، ولما يتبادر إلى الذهن من سياق الكلام.

الوجه الثالث: يقال لهم: عدم إثباتكم لهذه الشفاعة يلزمكم القول بتناقض الآيات، وهذا

كفر فكان لا بد من الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية بأن تحمل أدلة النفي على الكفار، وأدلة الإثبات على عصاة المسلمين، وإلا لزم التعارض في كتاب الله، والإيمان ببعض الكتاب دون البعض الآخر، وهذا كفر لا خلاف فيه.

الشبهة الثالثة: قالوا إثبات الشفاعة للعصاة يلزم التسوية بين المطيع والعاصي بدخولهم جميعاً الجنة، قالوا: هذا ينافي العدل.

والجواب: عليهم من وجوه:

الوجه الأول: أن يقال ليس في ذلك منافاة لعدل الله؛ لأن الله هو الذي حكم بذلك، وحكمه هو العدل، وهو الذي يعلم العدل من الظلم لا أنتم، فالله يفعل ما يشاء﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء:٢٣]. وقال الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [سورة المائدة:١]. ، فالعباد عباده، والملك ملكه يتفضل على من يشاء، وقولكم هذا فيه سوء أدب مع الله، واعتراض عليه في ملكه، وحكمه، وإهدار للحجج والأدلة بلا برهان.

الوجه الثاني: قولكم هذا من سوء الفهم للأدلة ولأقوال من خالفكم، فلم يقل أحد أنهم متساوون، وأما كونهم يدخلون الجنة جميعاً فلا يلزم منه التسوية فإن الجنة درجات، وبين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، وفي رواية مسيرة خمسمائة عام، فكيف يستوي من أطاع الله فكان في الدرجات العلى، ومن كان دونه بكثير من الدرجات كما قال الله : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ [سورة الزمر:٢٠]. ، وقوله:﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [سورة الإسراء:٢١]. ، و كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنْ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ**».

الوجه الثالث: الشفاعة لا يلزم منها التسوية فهناك فرق عظيم بين من يدخل الجنة بلا

حساب ولا عذاب، أو بحساب دون عذاب، وبين من يدخلها بعد الحساب والعذاب، فأين التسوية التي تزعمون؟؟

الوجه الرابع: لو افترضنا أن قولكم صحيح، فإن التسوية بين مؤمن مطيع، ومؤمن عاصي أهون وأقرب إلى قواعد الشرع والعقل من التسوية بين مؤمن وكافر، فإن قولكم بمنع هذه الشفاعة يلزم منه التسوية بين المسلم العاصي والكافر في تخليدهم في النار جميعاً، وهذا مناقض لأصول الشريعة، والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة عند سائر العقلاء فوقعتم في أعظم مما فررتم منه فأردتم العدل في عدم التسوية بين المطيع والعاصي من المؤمنين فسويتم بين المسلم والكافر.

الشبهة الرابعة: قالوا إثبات الشفاعة لإخراج العصاة من النار يلزم منه أن الشفعاء أرحم بالعصاة من ربهم، قالوا: وهذا كفر بالله بالاتفاق؛ فالله حكم عليهم بالنار، ولم يرحمهم فيأتي الشفعاء فيرحمونهم ويخرجونهم؟

والجواب من أوجه:

الوجه الأول: هذا اللازم باطل، ولا يقول به أحد، والقول به كفر كما ذكرتم.

الوجه الثاني: هذا اللازم لا يلزمنا وإلزامكم لنا به جهل منكم بالشرع والحس والواقع، أو تلبيساً منكم وتدليساً؛ لأن الشفاعة إنما هي من باب ربط الأسباب بمسبباتها، وهذا معلوم بالضرورة أنه ما من شيء إلا وجعل الله له سبباً، فالله جعل الشفعاء سبباً لحصول رحمته لهؤلاء العصاة فهم إنما خرجوا من النار، ودخلوا الجنة برحمة الله والشافع سبب، بدليل أن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله ورضاه، ولم يقل أحد أن الشفعاء يخرجون أناساً من النار دون علم الله وإذنه ورضاه.

فالشفاعة من أعظم أنواع رحمة الله، لكن الله جعل لهذه الرحمة سبباً وهم الشفعاء، ولهذا

أمثلة كثيرة من الواقع، فالذي ينقذ الغريق، ويداوي المريض، ويشبع الجائع، وينقذ المستضعف لا يقال إنه أرحم به من الله، وإنما يقال رحمهُ الله فيسر له بمن ينقذه، ويعطيه، ويداويه ... إلخ. والشفاعة مثلها فيقال: رحم الله العصاة في النار فيسر لهم من الشفعاء من كانوا سبباً في إخراجهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فيها إظهار لكرامة الشافع عند الله يوم القيامة.

الوجه الثالث: قولكم هذا يلزم منه أن تنكروا جميع أنواع الشفاعة التي تثبتونها؛ لأن فيها نفس المحذور، فقد يقول لكم قائل أنتم تثبتون الشفاعة العظمى لأهل الموقف فهل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرحم بأهل الموقف من الله؟ فيلزمكم بما تلزمون به من يثبت الشفاعة لعصاة الموحدين، فليس لكم إلا إثبات الكل أو إنكار الكل.

*****

المبحث السادس: عذاب القبر ونعيمه

عذاب القبر ونعيمه من أصول السلف الثابتة بالكتاب والسنة المتواترة والإجماع، وأنكر ذلك الجهمية والمعتزلة، وبعض فرق الرافضة كالزيدية، والجارودية.

أما الأدلة من القرآن على إثبات عذاب القبر ونعيمه فكثيرة، منها ما هو ظاهر، ومنها ما هو محتمل، فمن الآيات الظاهرة التي معناها ظاهر في إثبات عذاب القبر ما يلي:

١- قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ [سورة الأنعام:٩٣]. فقوله ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ بعد قوله ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ ظاهر في أنهم يعذبون بعد خروج أرواحهم، ولا يكون ذلك إلا في البرزخ لقوله﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ بعد قوله ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي بعد خروج الروح مباشرة.

٢- قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة التوبة:١٠١]. فظاهر الآية أنهم سيعذبون مرتين مرة في الدنيا ومرة في البرزخ.

فلو قال قائل: إنما المراد مرتين في الدنيا؟

فالجواب: أن العذاب في الدنيا قد يكون مرة، وقد يكون مرتين، وقد يكون مرات، والمراد هنا: جنس العذاب، وهو حصوله لهم في الدنيا.

فإن قيل مرتين! أي مرة في الدنيا ومرة في الآخرة؟

الجواب: قيل: لا يصح هذا؛ لأن عذاب الآخرة قد ذُكِرَ آخر الآية في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ

﴿ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة التوبة:١٠١]. أي في الآخرة فكانت المرتين قبل الآخرة، وليس قبل الآخرة إلا البرزخ والدنيا.

٣- قوله تعالى في سورة غافر ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [سورة غافر:٤٦]. دلت الآية أنهم كانوا في عذاب قبل قيام الساعة فإذا قامت الساعة اشتد عليهم العذاب، وهم قبل قيام الساعة إنما يكونون في الحياة البرزخية.

٤- قوله تعالى في سورة نوح ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ [سورة نوح:٢٥]. فالفاء في قوله ﴿ فَأُدْخِلُواْ ﴾ تدل على الترتيب بدون مهلة، كما هو معلوم في كتب اللغة، فيكون المعنى أنهم أدخلوا النار بعد غرقهم، ومعلوم أن نار الآخرة لا يدخلونها إلا يوم القيامة، فدل على أنها نار البرزخ في قبورهم، ولا سيما والمنكرون لعذاب القبر يقولون بأن النار لم تخلق بعد، وإنما يخلقها الله يوم القيامة.

٥- وقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [سورة إبراهيم:٢٧]. اتفق أئمة التفسير على أن المراد بقوله﴿ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ التثبيت عند السؤال في القبر، هكذا نص عليه حافظ حكمي في معارج القبول.

* أما الأدلة المحتملة للعذاب في الدنيا أو في القبر، فمنها: قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ [سورة السجدة:٢١].

* **وأما الأدلة من السنة** فكثيرة بلغت حد التواتر وقد رواها عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من ثلاثين صحابي منهم: عمر، وعثمان، وعلي، وسعد، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو، وابن الزبير، وعائشة، وغيرهم.

وقد سرد أكثر أحاديث هؤلاء حافظ حكمي في معارج القبول، ومن أشهرها: حديث ابن عباس في الصحيحين «**إنهما ليعذبان**»، وحديث أبي هريرة في الصحيحين: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر**»، وحديث البراء الطويل عند أحمد وغيره ولفظه عند ابن المبارك في الزهد: عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: «**خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ لَهُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، فِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاَثًا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَ إِلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ كَفَنِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، وَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ فِي الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَيُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلاَمُ، فَيَقُولاَنِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا عَمَلُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي أَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، فَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ لَهُ: أبشر بالذي يَسُرُّكَ، وَهَذَا يَوْمُكَ الَّذِي**

كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ثَلاَثًا، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلاَئِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، فَتَفَرَّقُ فِي أَعْضَائِهِ كُلِّهَا، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتَتَقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا مِنْ يَدِهِ، فَيَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، قَالَ: وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهَا فَلاَ يُفْتَحُ لَهَا، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، فَيُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾، قَالَ: فَيُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَا هَا لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَا هَا لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَا هَا لاَ أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ».

وأما **الإجماع**: فقد أجمع السلف على إثبات عذاب القبر ونعيمه، وقد نقل الإجماع غير

واحد من أهل العلم.

مسألة: هل العذاب والنعيم في القبر على الروح فقط أم على الروح والجسد؟

الجواب: في المسألة ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول أئمة السلف وعامتهم: أن العذاب والنعيم على الروح والجسد، والروح لها اتصال بالجسد في البرزخ يختلف عن اتصالها بالجسد في الدنيا.

القول الثاني: قول ابن حزم، وهو محسوب على أهل السنة، وطائفة من المعتزلة والأشاعرة أن العذاب والنعيم على الروح فقط، وهذا بعيد.

القول الثالث: قال به بعضهم: أن العذاب والنعيم للروح وللجسد ما دام باقياً، فإذا تحلل الجسد وتفتت يكون العذاب والنعيم على الروح فقط.

مسألة: حكم من ينكر عذاب القبر؟

الجواب: خلاصة كلام أهل العلم في هذه المسألة هي:

أن من أقيمت عليه الحجة ببيان الأدلة في ذلك من الكتاب والسنة، واستمر في الإنكار فإنه يكفر بذلك، ومن كان جاهلا فيعذر حتى يعلّم، وبهذا أفتت اللجنة الدائمة برئاسة ابن باز، وقال بذلك الألباني والعثيمين.

مسألة: هل عذاب القبر دائم أم منقطع؟

الجواب: دلت الأدلة على أن منه دائم، ومنه منقطع، وهو ما قرره ابن القيم، وغيره من أهل العلم.

شبهات منكري عذاب القبر

الشبهة الأولى: قالوا: لا يوجد دليل من القرآن على إثبات عذاب القبر!

والجواب عليهم من أوجه:

الوجه الأول: يقال لهم بأن الأدلة في القرآن موجودة كما تقدم، ولكن ضركم جهلكم بالقرآن ومعانيه.

الوجه الثاني: يقال لو افترضنا عدم وجود دليل في القرآن فإن السنة مليئة بالأدلة على ذلك بل قد بلغت التواتر كما تقدم.

الوجه الثالث: يقال لهم هل كل ما لم يرد في القرآن لا تؤمنون به؟ لو كان الأمر كذلك فقد وقعتم في الكفر الصريح؛ لأن أكثر تفاصيل الشريعة من صلاة، وصيام، وحج، وزكاة، وغيرها إنما وردت في السنة، فكونكم لا تقبلون إلا ما جاء في القرآن يلزمكم إنكار كثير من أركان الإسلام وشرائعه.

الشبهة الثانية: قالوا الأحاديث التي فيها إثبات عذاب القبر تعارض القرآن، والقرآن مقدم على السنة!

والجواب: أن يقال لهم هذا جهل مركب منكم، وعدم فهم لمعنى المعارضة، فإن المعارضة معناها: أن تثبت السنة ما نفاه القرآن، أو تنفي السنة ما أثبته القرآن، وهذا لا يوجد البتة لا في هذه المسألة، ولا في غيرها، فأين يوجد في القرآن أنه لا عذاب في القبر؟ هاتوا لنا آية واحدة نفى الله فيها عذاب القبر؟ لم ولن تقدروا؟ فاختلط عليكم التعارض بالمجمل والمبين، وهذا جهل شنيع، فانتفت المعارضة المزعومة تماماً، وإنما السنة فسرت وبينت ما في القرآن.

الشبهة الثالثة: قالوا: قد دل القرآن على أنه لا يوجد عذاب في القبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا ﴾ [سورة يس:٥٢]. فسمى القبر مرقداً، والمرقد موضع للراحة لا موضعا للعذاب.

والجواب من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن كثيراً من السلف قد فسروا قوله ﴿ مَّرۡقَدِنَا ﴾ أن ذلك ما يكون من رفع العذاب بين النفختين.

الوجه الثاني: قال آخرون من السلف: إنما وصفوه بالمرقد باعتبار ما رأوه من أهوال يوم القيامة حين خرجوا من قبورهم، فكان ما هم فيه في القبور بالنسبة إلى ما رأوه من أهوال يوم القيامة كالمرقد. فسموا لنا ولو صحابيا واحدا فهم من كلمة مرقدنا الذي فهمتموه؟ فهيهات أن تجدوا ذلك.

الوجه الثالث: يقال: أن لفظ كلمة «مرقد» لا تدل على انتفاء العذاب، فإن المرقد قد يكون مرقداً حسناً، وقد يكون مرقداً سيئاً، ورب رجل رقد في الموضع المريح، ويكون أسوء مرقد بالنسبة له، لما يعتريه من أحلام مزعجة أو مرض أو خوف من عدو، إلخ فكلمة «مرقد» لا تدل على راحة ولا عذاب فانتفت شبهتهم في هذه المسألة.

الشبهة الرابعة: قالوا: إثباتكم لعذاب القبر يلزم منه أن يقع على العبد العذاب قبل الحساب، وهذا ليس عدلا، لا سيما والأدلة تدل على أن العذاب إنما يكون بعد الحساب.

والجواب من أوجه:

الوجه الأول: الحساب قد يكون كليًا، وقد يكون جزئيًا، وعذاب القبر ونعيمه إنما وقع بعد حساب جزئي، وهو سؤال الملكين، وسائر الحساب يوم القيامة تابع لما في سؤال الملكين، كما في حديث البراء المتقدم.

الوجه الثاني: على فرض أنه قد حصل العذاب قبل الحساب فليس هذا ظلماً؛ لأن الله قد أحصى كل عمله، والحساب لا يزداد به العبد شيئاً من العمل إنما هو لإظهار عدل الله جل وعلا، والله تعالى هو العدل قبل الحساب وبعد الحساب، فأي إشكال أو ظلم في هذا.

الوجه الثالث: أن يقال في عذاب القبر من عدل الله بل ورحمته ما لا يخفى، وذلك فيما يحصل بسبب العذاب في القبر من تخفيف العذاب يوم القيامة، وهذا من رحمة الله، وهو شيء زائد عن العدل، فتضمن عذاب القبر العدل وزيادة.

الوجه الرابع: أن مثل هذا الاعتراض لا ينبغي أن يقوله مسلم عاقل لأن من المعلوم من الدين بالضرورة أن الله لا يظلم مثقال ذرة، ومن شك في ذلك كفر والله أعلم.

الشبهة الخامسة: استدل نفاة عذاب القبر بقول الله جل وعلا في سورة الدخان: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [سورة الدخان:٥٦]، قالوا: فإثبات الحياة في القبر للنعيم أو العذاب ثم الموت عند النفخ في الصور يلزم منه أن يموتوا موتتين، وهذا يناقض الآية!

الجواب: أن يقال لهم: هذا من جهلكم العظيم بمعنى الآية فإن الآية ليس لها علاقة بمسألة القبر لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هي تتحدث عن أهل الجنة، وأنهم لا يموتون فيها وهذا واضح جداً لمن قرأ ما قبلها من الآية ٥١-إلى ٥٧ من سورة الدخان، وأولها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ... إلى قوله لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ (إلى) ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة الدخان:٥١-٥٧]. إذاً الآية تتحدث عن أهل الجنة في الجنة، وأنهم إذا دخلوا الجنة لا يموتون، وهؤلاء يستدلون بها على مسألة إنكار عذاب القبر، فالآية في واد وهم في واد آخر، وبعضهم لا يجهل هذا لكن يعجبهم التلبيس على أتباعهم، وهكذا دين أهل البدع مبني على الشبهات يأخذ جزء من آية أو آية من مقطع ولا ينظر ما قبلها ولا ما بعدها ليضل بها أصحابه ويلبس بها على أتباعه والله المستعان.

الشبهة السادسة: وهي شبهة العلمانيين، ومن يسمون أنفسهم بالعقلانيين، ويدندن بها بعض منكري عذاب القبر من أهل البدع، وهي قولهم: لو كان عذاب القبر حقاً لسمعنا أصواتهم، ولرأينا آثار العذاب والنعيم عليهم عندما نفتح القبور، وكيف يقع عليهم نعيم أو عذاب والجسم يتحلل، ويصير رفاتاً ترابا؟

والجواب أن يقال لهم:

أولاً: ما يحصل في القبور أمور أخروية لا تقاس على أمور الدنيا، ولهذا كان للإيمان بالغيبيات مزية؛ لأنه لا يمكن إدراكه على حقيقته، وإنما يُمدح العبد على تسليمه فيه لقول الله ورسوله.

ثانياً: هل كل شيء غير محسوس، وغير مرئي يُنكر؟ فالعقل غير مرئي ولا محسوس فهل توافقون على إنكاره، وأنه لا يوجد عقل، يقال لهم: هل لكم عقول؟ إن قالوا نعم نقول لهم أين هي؟ وكيف شكلها، وما لونها، وما طعمها، رطبة أم رخوة أم صلبة، وهل تحسونها، وهل ترونها؟، وإن قالوا: لا فيقال لهم أنتم بين خيارين:

١- إما أن تنكروها لأنكم لا تؤمنون إلا بالمحسوسات فصرتم بلا عقول، ومن لا عقل له لا نقبل قوله، وليس قوله حجة.

٢- وإما أن تقولوا من الأمور ما يجب الإيمان به ولو لم يكن محسوساً، نقول لهم: وعذاب القبر منها، ومن ذلك أننا نرى النائم في منامه ربما يحلم بأحلام طيبة، أو بكوابيس مزعجة، وأنت تنظر إليه نائماً ولا تحس بشيء مما يراه هو في منامه فإذا كان لا يمكننا رؤية أحلام من بجانبنا وهم في الدنيا فكيف يمكن إدراك أمر من أمور الآخرة. فلو قال قائل: أحياناً النائم تستطيع تميزه من صورته، فيقال هذا نادر، والنادر لا حكم له.

ثالثاً: يقال قد حصل في حوادث متفرقة مشهورة في عدة أماكن وعدة أزمنة أن سمعت

بعض الأصوات من القبور، ورئيت نار تخرج من بعض القبور، وأخرجت بعض الجثث لبعض الأسباب فرئي على بعضها آثار نعيم، وبعضها آثار عذاب. إذاً فالأمر محسوس ولا يمكن لأحد إنكاره، حيث تُخرج جثث سليمة كما حصل لإخواننا في دماج نسأل الله أن يتقبلهم في الشهداء، وغيرهم من قبل ومن بعد من زمن الصحابة إلى يومنا هذا، أو جثث تُخرج متفحمة، وجثث عليها آثار البؤس، وجثث تخرج في حالة سيئة وهذا واقع، إذاً فقد اجتمع في عذاب القبر الأمر الغيبي، والأمر المحسوس لعلامات وآيات جعلها الله جل وعلا للناس فهذا معلوم متواتر فلا يبقى لشبهتكم أي أثر، ولله الحمد.

الشبهة السابعة: لو قال قائل: ما ذكرتموه من الآيات في إثبات عذاب القبر إنما وردت في حق الكفار كما هو ظاهر من سياق الآيات، فكيف جعلتموها في حق المسلمين؟

الجواب من وجوه:

الوجه الأول: يقال للمعترض بهذه الشبهة: هل تقر بأن الكفار يعذبون في قبورهم؟ فإن قال لا، فيقال له: إذاً اعتراضك باطل، ومتناقض، وإن قال: نعم الكفار يعذبون في القبور، فيقال: هذا إقرار منك بوجود عذاب في القبر، وهذا يناقض قولكم لا عذاب مطلقاً، وتناقضكم دليل على بطلان مذهبكم.

الوجه الثاني: إنما استدلالنا بهذه الآيات لإثبات عذاب القبر من حيث الجملة، لأنكم جزمتم بأنه لا دليل من القرآن على ذلك، فاعترافكم بأن هذه الآيات تدل على عذاب القبر رد عليكم بألسنتكم.

الوجه الثالث: إن كانت الآيات في حق الكفار فكيف تصنعون في عشرات الأحاديث المتواترة في إثبات عذاب القبر، والسنة مبينة ومفسرة لما في القرآن.

الوجه الرابع: يقال للمعتزلة والخوارج، وهم الأصل في إنكار عذاب القبر، يقال لهم

ألستم تعتقدون أن المسلم إذا فعل كبيرة خرج من الإسلام وصار كافراً؟

سيكون جوابهم بلى، فعندئذٍ يقال لهم: فإذا أقررتم أن هذه الآيات فيها إثبات لعذاب الكفار في القبر وأصحاب الكبائر عندكم كفار فقد خصمتم وأقررتم على أنفسكم بما أنكرتموه، فإن إثباتنا لعذاب القبر هو لأصحاب الكبائر، إذاً هذا اعتراف منكم أن عذاب القبر حق لكن أنتم تسمونهم كفاراً، ونحن نسميهم مسلمين عصاة.

*****

المبحث السابع: حجية السنة والرد على من لا يرى الاستدلال بالسنة إما إنكاراً لها وإما بإثارة الشبهات حولها

هذه المسألة من المسائل المهمة من زمن قديم، وإلى يومنا هذا، وازدادت أهميتها في هذا الزمان، فإنه فيما مضى كان الذين يحاولون الطعن في السنة من بعض الفرق من أهل البدع كالمعتزلة، وبعض الأشاعرة، والخوارج بإثارة الشبهات، والرد لبعض الأحاديث أما في زماننا هذا فقد كثر الطاعنون في السنة، والمنكرون لحجيتها من أهل البدع المعاصرة من جهة، ومن جهمية ومعتزلة، ورافضة، ومن يسمون أنفسهم بالعقلانيين كالعلمانيين، والحداثيين، ومن يسمون أنفسهم بالمفكرين الإسلاميين، حيث ظهر في هذا العصر لقب «**المفكر الإسلامي**» حيث جعلوا الإسلام عبارة عن فكر وليس دين سماوي، ويلبسون على الناس ببعض الشبهات للطعن في الإسلام باسم إنكار السنة، وإثارة الشبهات حولها، فكثرت السهام الموجهة من هؤلاء إلى السنة النبوية وأهلها، لهذا كانت هذه المسألة مهمة جداً لطالب العلم وأن يكون عنده إلمام بها لكثرة ما يثار من الشبهات وما يدندن به في القنوات والمواقع على أيدي أهل البدع من جهة، وأهل الشهوات والباطل من العلمانيين وأفراخهم من جهة أخرى.

إذ أن حجية السنة وإثباتها حجة يحتج بها في العبادات والمعاملات والغيبيات كما يحتج بالقرآن، وهذه عقيدة مهمة للمسلم، وعليها يكون صلاح الدين وفساده فهي من أهم المسائل لأننا إن أثبتنا حجية السنة سنثبت سائر العقائد الصحيحة، وإذا سلمنا لأهل الباطل بأن السنة ليست حجة سيتلاعبون بنا كيفما يشاؤون، وسننكر ونبطل كثيراً من الشرائع باسم أنها لم تأت في القرآن، وإنما جاءت في السنة، والسنة ليست حجة فصار كل شيء لا يعجبهم ويتنافى مع أفكارهم وأهوائهم وشهواتهم ومعتقداتهم الباطلة، ردوه وأنكروا كونه من الدين

لأنه لم يأت في القرآن وإنما جاء في السنة، والسنة ليست حجة، فصار هذا عكّازهم لرد كثير من السنن، وهدم كثير من العقائد باسم السنة ليست حجة! وإلى الله المشتكى.

الأدلة من القرآن على حجية السنة

١- قال الله جل وعلا في سورة الحشر ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [سورة الحشر:٧]. وجه الاستدلال بهذه الآية: أن معنى ما أتاكم الرسول وما نهاكم؛ أي في سنته.

فلو قال قائل: المراد بما آتاكم أي من القرآن، فيقال له: هذا لا يستقيم فلو كان المراد القرآن فسيكون السياق: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ اللَّه فَخُذُوهُ ﴾، ولكنه سبحانه قال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ إذاً هناك شيء زائد وهي السنة المتمثلة في أقوال النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-وأفعاله، وتقريره.

٢- قال الله تعالى في سورة النحل، وهو يخاطب نبيه -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ...﴾ [سورة النحل:٤٤]. فالذكر هو القرآن، وقوله: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ المراد بذلك السنة، وإذا لم تكن السنة هي البيان المقصود بهذه الآية إذاً فأين هو بيانه؟

فهل بين النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أم لم يبين وهل امتثل لأمر الله؟

فإن قالوا قد بين فنقول لهم أين البيان؟ وهل البيان إلا سنته!

وإن قالوا: لم يبين، قيل لهم هذا كفر، لأنه تكذيب للقرآن فالآية دلت على أن هناك ذكر وهناك بيان، وأيضاً يلزم منه اتهام رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بكتمان ما أمره الله بتبليغه ومخالفته

لأمر ربه واعتقاد ذلك عين الكفر.

٣- قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [سورة النساء:١١٣].، وقوله في نبيه في عدة آيات من سورة البقرة والجمعة وآل عمران: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾، ومنه قوله تعالى في سورة الأحزاب في الخطاب الموجه لنساء النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ ...﴾ [سورة الأحزاب:٣٤].

فالكتاب والآيات هو القرآن، والحكمة هي السنة، وفي الآية الأولى دليل على أن السنة منزلة من عند الله كما أن القرآن منزل من عند الله لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ أي وأنزل عليك الحكمة فهي منزلة من عند الله.

٤- قال الله تعالى في سورة النور: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ...﴾ [سورة النور:٥٤]. وغيرها من الآيات التي قرن الله فيها الأمر بطاعته مع طاعة رسوله، وطاعة رسوله لا تكون إلا بالعمل بأقواله وأفعاله، وهذا لا نجده إلا في سنته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

٥- تزكية الله لنبيه بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم:٣-٤]. في هذه الآية بيان أن أقواله وأفعاله هي السنة وهي وحي من الله، وما كان وحي من الله فهو حجة.

فهذه جملة أدلة ويوجد غيرها من الأدلة الصريحة على أن السنة من عند الله وأنها حجة، وهذه الآيات أشهر وأصرح ما في القرآن من الأدلة على ذلك.

*** قولهم القرآن حجة ويكفينا القرآن، فيقال لهم:**

هذه حجة دامغة عليكم لا لكم لأن القرآن هو من دلنا على السنة، وأخبرنا أن السنة حجة فإذا كنتم فعلا تعظمون القرآن فاعملوا بالقرآن، وخذوا بدلالته وإرشاده، فالقرآن فيه دلالة

على السنة والقطع بأنها حجة، كما في الآيات آنفة الذكر، والله أعلم.

الشبه التي يثيرها منكرو السنة والمشككون فيها

لأهل الباطل الذين يشككون في حجية السنة شبه متنوعة ومتعددة وفي كل زمن يوردونها بقالب آخر وأشهر شبههم تتمثل في ست شبه:

الشبهة الأولى: قالوا السنة ليست محفوظة كالقرآن، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر:٩]، فإن الله أخبر عن حفظه للقرآن، ولم يخبر عن حفظه للسنة، قالوا: وما ليس بمحفوظ فليس بحجة.

الشبهة الثانية: قالوا: ومما يدل على أنها ليست بحجة أن فيها أحاديث تعارض القرآن، كذا زعموا.

الشبهة الثالثة: قالوا: إنما دونت السنة وكتبت بعد موت الرسول ﷺ بعشرات السنين، وهذا أمر يدعو للتشكيك فيها لا سيما وقد ورد أن رسول الله ﷺ نهى الصحابة أن يكتبوا غير القرآن.

الشبهة الرابعة: قالوا: من يضمن لنا أنها من كلام الرسول -ﷺ-، حتى بلغ ببعضهم من الجرأة والسخرية أن يقول: هل أنت سمعت رسول الله بأذنيك؟ ما الذي يضمن لك قبل ١٤٠٠ سنة أن الرسول قال هذا، وهذا من جهلهم المدقع كما سيأتي.

الشبهة الخامسة: قالوا: مما يدل على عدم حجيتها أن فيها الصحيح والضعيف بعكس القرآن فكله صحيح.

الشبهة السادسة: قالوا: قد أخبرنا الله في القرآن أن القرآن كافٍ لكل شيء فلا حاجة إلى السنة، قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [سورة الأنعام:٣٨].

* فعامة شبههم والله أعلم تتلخص في هذه الست النقاط: والجواب عليها كالتالي:

جواب الشبهة الأولى: قولهم: «**بأن السنة لم يَعِدِ الله بحفظها كما وعد بحفظ القرآن**».

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن يقال بل وعد الله بحفظها وأشار إلى ذلك في بعض ما تقدم من الآيات، كقول الله تعالى عن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾، والوحي كله محفوظ، وليس لقائل إن يقول: المراد هنا القرآن، بل يقال المراد كل ما ينطق به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كلام الله ومن كلامه لعموم الآية ولا مخصص لها والله أعلم، وعلى هذا فإذا كان كلام رسول الله وحياً فإنه محفوظ.

الوجه الثاني: قد أخبرنا الله بأنها مُنزّلة من عنده وفي ذلك إشارة إلى حفظها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾، والحكمة هي أقواله التي بين فيها معاني القرآن وتفاصيل أحكامه، وهذه الأقوال هي سنته.

الوجه الثالث: وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ [سورة التوبة:٣٢]. دليل واضح على حفظ السنة فإن نور الله المقصود بهذه الآية هو كلامه وكلام رسوله، والإتمام لا يكون إلا بالحفظ فوعد الله بأن يتم نوره، ولا يكون ذلك إلا بحفظه. ولا يمكن لأحد أن يقول نوره هنا القرآن فقط، فإن لازم ذلك أن كلام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيه نور ولا هدى، ومن قال بهذا كفر.

الوجه الرابع: يقال لهم السنة تدخل في عموم الذكر الذي وعد الله بحفظها، ويتناولها قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر:٩]، فإنه وإن كان

المقصود بالذكر هنا القرآن إلا أن الآية فيها إشارة إلى دخول السنة إجمالا في الآية لأن السنة مشتملة على الكثير من الذكر.

الوجه الخامس: يقال لهم: كيف حُفِظ القرآن إلى زماننا هذا أليس بنقل الرواة العدول له بعضهم عن بعض من لدن الصحابة ومن بعدهم إلى يومنا هذا، والذين نقلوا القرآن وحفظه الله بهم هم أنفسهم الذين نقلوا لنا السنة، وحفظها الله بهم، والتشكيك في السنة يعتبر تشكيك في القرآن؛ لأن الذين نقلوا القرآن هم الذين نقلوا السنة، فإذا كانت السنة ليست صحيحة ولا محفوظة فسيكون القرآن ليس بصحيح ولا محفوظ؛ ولازم هذا: الكفر، عياذا بالله، لأن الذين نقلوا القرآن هم الذين نقلوا السنة، والطعن فيهم معناه التكذيب أو التشكيك على أحسن الأحوال فيما نقلوه، فلا يبقى لنا ما نعتقده يقينا لا قرآن ولا سنة كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

جواب الشبهة الثانية: قولهم: «**بأن السنة تعارض القرآن، وقال بعضهم: لا نأخذ من السنة إلا ما وافق القرآن، وما عارض القرآن رددناه**».

والجواب من أوجه:

الوجه الأول: يقال لهم: لا يوجد أصلا تعارض بين القرآن والسنة الصحيحة أبداً، وما تظنونه تعارضاً فليس بتعارض، وإنما ظننتموه أنتم متعارضاً بسبب سوء فهمكم وجهلكم أو تلبيسكم وزيغكم وإلا فيستحيل أن يأتي حديث صحيح غير منسوخ يعارض القرآن، وما أوهم التعارض عند البعض فلقلّة علمه، وأما العلماء الراسخون فلا تعارض عندهم، وإنما يوجهون الأدلة ويجمعون بينها بلا تعسف.

الوجه الثاني: لو سلمنا لكم على فهمكم أن هناك تعارض فيلزمكم التشكيك في القرآن بحجة أن بعض الآيات متعارضة، وقول هذا واعتقاده كفر لكن ما دمتم فتحتم الباب بهذه الطريقة الملتوية فيلزمكم ما تقدم، فمثلا لو قال لكم قائل: كيف تفعلون بقول الله لنبيه:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [سورة القصص:٥٦]. وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الشورى:٥٢]. فالآية الأولى نفت عنه الهداية، والآية الثانية أثبتت له الهداية، فعلى طريقتكم سيقول من لا يفهم: القرآن متعارض! أما على طريقة الراسخين في العلم وأهل الحق فيجمعون بين الآيات، فالهداية المنفية هي هداية التوفيق والإلهام، والهداية المثبتة هي هداية الدلالة والإرشاد، وهكذا هو الحال مع الأحاديث الصحيحة بعضها مع بعض، والأحاديث الصحيحة مع القرآن فيحصل التوجيه والجمع بين الأدلة، ولا يقال بأنها متعارضة. وكم من الآيات التي يمكن إلزامكم بها مما ظاهرها التعارض وفي الحقيقة لا تعارض لإمكان الجمع بين مدلولاتها بدون تعسف ولا تكلف، وكذلك الأحاديث مع بعضها أو مع القرآن قد يظن بعض من قصر باعه في العلم أنها متعارضة وفي الحقيقة لا تعارض لإمكان الجمع، وإلا فتح الباب على مصراعيه للتشكيك في القرآن والسنة، والله أعلم.

* وأما قولهم: «**ما وافق القرآن قبلناه... إلخ**» فهذا الكلام صادر عن حُمق وغباء وجهل وهو كلام باطل من عدة وجوه:

الوجه الأول: يقال لهم أين الدليل من القرآن على هذا القول ألستم تقولون بما وافق القرآن؟ أين الدليل على هذا؟ فليس في كتاب الله آية ولا بعض آية تنص على هذا.

الوجه الثاني: أرأيتم لو وجدنا كلاماً لبعص العلماء والصالحين، أو بعض الحكماء يوافق شيئاً من القرآن فهل يجوز أن نقول إن هذا من السنة الموافقة للقرآن؟ وهل لنا أن ننسبه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه يوافق القرآن؟

فهذا قول في غاية الحمق لأنه يفتح الباب على مصراعيه للتقول على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تحت مسمى موافقة القرآن، فما هو المقياس عندكم والميزان الذي من خلاله نميز بين كلام النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبين كلام غيره؟

الوجه الثالث: ألستم تستدلون لتأييد أقوالكم ومذاهبكم بأحاديث ضعيفة بل قد يكون

بعضها لا أصل له لا تصح سنداً ولا توافق القرآن لفظاً بل تخالفه ومع ذلك تنسبونها للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فهل الدين على مزاجكم وأهوائكم وقد قال الله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ ﴾ [سورة الإسراء:٣٦]، ولذلك أمثلة كثيرة مما تستدلون به وهو مخالف للقرآن متناً وشديد الضعف سنداً، بل موضوعاً، فأي دينٍ هذا الذي تتعبدون الله به؟

فمثلا: الشيعة يستدلون على أفضلية علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحديث: «**علي خير البشر فمن أبى فقد كفر**» وهذا الحديث لا خطام له ولا زمام، وهو مخالف للقرآن، فالله أخبر في القرآن عن تفضيل أنبيائه ورسله لا عن تفضيل علي! ومن ذلك حديث: «**أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا و من تخلف عنها هلك**» يجعلونه حديثاً وهو لا أصل له في كتب الحديث، بل هو مما اقترفته الشيعة وهو مكذوب على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والله جل وعلا إنما جعل النجاة في كتابه و سنة رسوله، فهم عندما يحتاجون لشيء يؤيدون به مذهبهم يستدلون بأي شيء ويقولون قال رسول الله، فلا تصح أحاديثهم في الإسناد ولا توافق القرآن بل تخالفه، وإذا جاء أهل السنة بالأدلة الناصعة التي هي كالشمس صحيحة الإسناد متفقة مع القرآن، يقولون هذا يخالف القرآن مع أنه لا يخالف القرآن أساساً، فالمسألة مسألة هوى كما قال الله جل و علا: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ ﴾ [سورة القصص:٥٠].

جواب الشبهة الثالثة: قولهم: «**كيف تكون السنة محفوظة وإنما دونت بعد موت النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بقرابة تسعين سنة، وأيضاً قد نهى النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الصحابة في حياته عن كتابة غير القرآن فقال لا تكتبوا عني سوى القرآن، فمن أين جاءت إذاً؟**».

والجواب من أوجه:

الوجه الأول: كون السنة إنما دونت متأخرة بعد وفاته بعشرات السنين ليس فيه دليل على عدم حجيتها لأنها كانت محفوظة في الصدور ومنها ما هو مدون عند بعض الصحابة ودونها عنهم بعض التابعين، والذي حصل في سنة مائة في خلافة عمر بن عبد العزيز إنما هو جمع

هذه المتفرقات من الصحف والصدور في كتاب واحد. وكان ذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هجرية جمعها من صدور الرجال ومن المكتوب في الصحف وأوكل ذلك إلى إمام من أئمة التابعين من كبار حفاظ الحديث وهو الإمام الزهري. فالتدوين موجود أصلا من زمنه عليه الصلاة والسلام، والذي حصل متأخراً هو زيادة الاعتناء بالتدوين وجمع ما تفرق منها عند هذا وعند هذا، فهذه الشبهة عليلة بل ميتة.

الوجه الثاني: لو سلمنا لكم أن السنة لم تدون إلا في وقت متأخر فلا يدل هذا على بطلانها فإن القرآن أيضاً دون في وقت متأخر بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقرابة عشرين سنة وجمع في مصحف واحد في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان قبل ذلك محفوظاً في الصدور ومكتوباً في أجزاء متفرقة في الصحف والرقاع فهل معنى هذا أن القرآن باطل لأنه دون متأخراً والعياذ بالله، إذاً فتأخر التدوين لا يدل على بطلان السنة كما أنه لا يدل على بطلان القرآن، والذين دونوا القرآن هم الذين دونوا السنة، فالقدح في السنة بهذه الشبهة قدح في القرآن شعرتم أم لم تشعروا.

الوجه الثالث: كيف تستدلون بحديث النهي عن كتابة القرآن، وهو من السنة وأنتم ترون عدم الاحتجاج بالسنة أصلا فهذا تناقض منكم!

الوجه الرابع: هذا الحديث الذي فيه النهي إنما كان في أول الإسلام خشية أن يختلط عليهم القرآن بكلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أذن لهم بالكتابة بعد ذلك فقال لعبد الله بن عمرو لما نهاه بعض قريش عن كتابة أقوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له اكتب فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حقا؛ أي من فمه، وقال في حجة الوداع: اكتبوا لأبي شاة كما في صحيح البخاري.

جواب الشبهة الرابعة: قولهم: «**من يضمن لنا أن هذه الأحاديث التي بين أيدينا** من كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟».

الجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن يقال الذي ضمن لنا أن المكتوب في المصحف هو كلام الله، ضمن لنا أن السنة كلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تقدم من أن نقلة السنة هم نقلة القرآن، وأن التشكيك في السنة تشكيك في القرآن، فكما أن القرآن مضمون أنه كلام الله فكذلك السنة الصحيحة مضمونة بأنها من كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلا توجه الكلام على القرآن، فلو قالوا: القرآن قد نصت الآية على حفظه كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر:٩]، قلنا: السؤال بحاله: من يضمن أنها آية من القرآن؟ فإن قيل: اتفاق المسلمين على ذلك، وبقاؤها دون تغيير. قيل: وكذلك السنة الصحيحة غالبها اتفق المسلمون على قبوله إلا من شذ، وهي باقية دون تغيير على مر السنين، فبطلت شبهتكم.

الوجه الثاني: قولكم هذا يدل دلالة واضحة جداً على جهلكم الشنيع بكيفية تدوين السنة والاعتناء بها وتمييز صحيحها من ضعيفها وما قام به العلماء من زمن التابعين وإلى يومنا هذا من الجهود العظيمة في حفظ السنة والتحري الشديد في رواتها، إلى مستوى يذهل العقول، مما لا يدع مجالا للشك أن السنة الصحيحة ثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن ضركم جهلكم، ومن تكلم فيما لا يحسن أتى بالبلايا والعجائب.

جواب الشبهة الخامسة قالوا: السنة فيها الصحيح والضعيف، ومنها ما حصل الخلاف بين أهلها في صحته وضعفه وهذا يدعوا للتشكيك فيها، ويدل على أنها ليست محفوظة بعكس القرآن فكله صحيح، ولا خلاف في آياته؟

والجواب من أوجه:

الوجه الأول: إن كان فيها صحيح وضعيف فإنما يؤخذ الصحيح ويترك الضعيف، واعترافكم بهذا التقسيم ملزم لكم بأن تقبلوا الصحيح ما دام صحيحاً إذ لا يجوز رد الحديث الصحيح بغير حجة بل يجب قبوله ما دمتم مقرين بصحته لأنه صحيح، لكنكم تردون ذلك

بمجرد الهوى عياذاً بالله.

الوجه الثاني: تقدم معنا أن قولكم هذا ناشئ عن جهل كبير منكم أو تجاهل للجهود العظيمة التي بذلها أئمة الحديث في التمييز بين الصحيح و الضعيف، وما وضعوه من الشروط الشديدة في الراوي ليقبل حديثه وما حصل عندهم من التحري العجيب في أحوال الرواة وأحاديثهم وذكر ما أخطأ فيه الثقات ليُجتنب وبيان المختلطين ومن روى عنهم قبل الاختلاط وبعده وتركهم لحديث الراوي أو توقفهم فيه لأدنى قرينة تشكك في روايته وضبطه، كالاضطراب والنسيان وكثرة الخطأ وغير ذلك، فهذه الأمور وغيرها تدل دلالة واضحة على ما حصل عند أئمة الحديث من التحري الشديد والدقة المذهلة في بيان صحيح الأحاديث من ضعيفها، وصيانة سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن يدخل فيها ما ليس منها.

الوجه الثالث: يقال لهم أيضاً: يلزمكم على قولكم هذا رد القرآن أيضاً وهذا كفر؛ لأن من المعلوم أن القرآن الكريم فيه قراءات متنوعة، كالقراءات السبع، والقراءات العشر، والأربعة عشر، وفيه قراءات شاذة وأخرى ضعيفة لم يقبلها أهل العلم ولم يقرؤوا بها وبينوا ضعفها لعدم توفر شروط صحة القراءة فيها.

فهل هذا مسوغ للطعن في القرآن والعياذ بالله؛ حيث وردت به قراءات ضعيفة؟ الجواب لا؛ لأن الضعيفة غير معمول بها وكذلك الأحاديث الضعيفة غير معمول بها فلا يلزم منها الطعن في السنة أو التشكيك فيها فإن قال قائل: فما الجواب عن أحاديث مختلف فيها هذا يحسنها وذاك يضعفها؟!

فيقال له: وكذلك توجد قراءات مختلف فيها، وهذا كله يدل على أن كلما يقال في السنة يقال في القرآن، وأن الطعن في السنة طعن في القرآن فهما صنوان لا يفترقان، ثم هل أنتم أساساً قائلون بالأحاديث المتفق على صحتها، حتى نجيبكم عن كيفية العمل بالمختلف فيها، أم أنكم أنكرتم الجميع إلا ما وافق أهواءكم؟؟

جواب الشبهة السادسة: قالوا: «**قد أخبرنا الله في القرآن أن القرآن كافٍ لا يحتاج معه إلى غيره قال تعالى في سورة النمل:** ﴿ أَوَ لَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [سورة العنكبوت:٥١]، **وأن الله لم يفرط فيه بشيء، حيث قال الله تعالى:** ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ [سورة الأنعام:٣٨]. **فدلت هذه الآية أنه لا يحتاج إلى السنة لأن القرآن فيه كل شيء**».

والجواب من أوجه:

الوجه الأول: أن يقال نعم القرآن فيه كل شيء إما مجملاً وهو الأكثر، وإما مفصلاً وهو الأقل، والمجمل الذي هو أكثر القرآن لا يوجد له بيان وتفصيل إلا في السنة وهذا الأمر لا يستطيع إنكاره من له أدنى فهم وعقل وتأمل لتفاصيل الشريعة سواء في العبادات أو المعاملات.

الوجه الثاني: لو سلمنا لكم ذلك أن القرآن فيه كل شيء جملة وتفصيلا فهاتوا لنا تفاصيل الشريعة من عبادات ومعاملات وأخلاق وآداب من القرآن وأنّى لكم ذلك؛ لأن عامة تفاصيل الشريعة وبيان أركان الإسلام وما دونها لا يوجد في القرآن وإنما في السنة فأين نجد عدد الصلوات، وعدد الركعات، وصفة الصلاة، وشروطها، وأركانها، ونواقضها بتفصيل في القرآن وقس على ذلك في بقية أركان الإسلام وسائر العبادات والمعاملات. هاتوا لنا تفاصيل البيوع المحرمة من القرآن، وهاتوا لنا تفاصيل الزواج من القرآن، هاتوا تفاصيل الحج وأن الطواف سبعاً، والوقوف بعرفة يكون اليوم التاسع، فتفاصيل الشرائع كلها إنما وردت في السنة، إذاً إنكاركم للسنة أو التشكيك فيها فيه هدمٌ للدين وإماتة للشريعة، وفتح الباب لكل مبطل وملحد لإنكار كثير من شعائر الدين بحجة أنها لا توجد في القرآن فأي فساد للفطرة والعقل والدين والأخلاق بل للدين والدنيا سينتج بسبب هذه الفكرة الخبيثة الباطلة.

الوجه الثالث: قد عُلم بالضرورة من واقع الناس في كل زمان ومكان أن ما ورد في السنة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق لا ريب فيه، وأن رسول الله قد قالها بلا شك ولا ريب وذلك من خلال ما يجده الناس بين الحين والآخر من المطابقة التامة بين ما يقع في حياتهم مع ما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأحاديث علامات الساعة الصغرى والفتن فإنه قد وقع كثير منها مطابق تماماً لما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعامة هذه الأمور لم تذكر في القرآن إنما ذكرت في السنة، والمقصود أنه ليس معكم على هذا دليل لا من كتاب ولا من سنة صحيحة ولا إجماع ولا قياس صحيح ولا عقل صحيح ولا حس ولا مشاهدة فلا أدل على فساد قولكم من مخالفتكم لكل هذا الأدلة النقلية والعقلية وأن جميع الأدلة والحجج عليكم لا لكم، وحسبكم هذا في بيان بطلان قولكم وفساد مذهبكم، والله المستعان.

*****

المبحث الثامن: رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

أجمع السلف على أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا يقظةً لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**» رواه الطبراني عن أبي أمامة، ورواه أحمد عن عبادة بن الصامت.

وأما في المنام فذكر بعض أهل العلم فيه كلاماً لبعض السلف وأكثرهم لم يتطرّق لهذه المسألة.

وأجمعوا على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في عرصات القيامة ثم في الجنة لدلالة الكتاب والسنة المتواترة وإجماع السلف على ذلك، واختُلف في الكفار والمنافقين هل يرونه في العرصات أم لا؟ كما سيأتي إن شاء الله.

وخالف في الرؤية في الآخرة الجهمية، والمعتزلة، والرافضة، ومنهم الزيدية، والخوارج بشتى فرقهم، وسيأتي بيان ذلك.

الأدلة من القرآن على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

١- قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [سورة يونس:٢٦]، فالحسنى الجنة، والزيادة: هي النظر إلى الله -أي رؤية الله -وهذا قول عامة المفسرين.

٢- قوله تعالى في سورة ق: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ ﴾ [سورة ق:٣٥]، عامة المفسرين على أن المزيد هو رؤية الله سبحانه وتعالى.

٣- قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [سورة القيامة:٢٣].

٤- قوله تعالى في سورة المطففين: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [سورة المطففين:٢٢-٢٣].

٥- قوله تعالى في سورة المطففين أيضاً: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [سورة المطففين:١٥].

٦- قوله تعالى في آخر سورة الكهف: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [سورة الكهف:١١٠]. فسر جماعة من السلف اللقاء بالرؤية، ولا يكون لقاء إلا برؤية، ومثلها:

٧- قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب:٤٤].

قال ثعلب: -أحد أئمة اللغة أجمع أهل اللغة على أن اللقاء هنا هو الرؤية، وذلك أنه لا يمكن ملاقاة وخطاب إلا برؤية.

الأدلة من السنة على رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

بلغت الأدلة من السنة مبلغ التواتر، وقد رواها عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من ثلاثين صحابياً سردها حافظ حكمي في «معارج القبول»، ومن هؤلاء الصحابة -رضوان الله عليهم-: أبي بكر، وعلي، وعائشة، وعمَّار، وابن مسعود، وجابر، وأنس، وأبي موسى، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وعبادة بن الصامت، وسلمان، وحذيفة، وجرير بن عبد الله، وغيرهم.

وأما في اللغة: فإنها بلغت مبلغ القطع واليقين في هذه المسألة استنباطاً من الآيات والأحاديث.

فائدة: من أقوى الأدلة المتقدمة على إثبات الرؤية الآية في سورة القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [سورة القيامة:٢٢-٢٣]. وذلك لأنها دلت على إثبات الرؤية من وجوه:

الوجه الأول: أن النظر عُدِّي ب «إلى»، والنظر إذا عُدِّي ب«إلى» فالمراد به الرؤية بالعين بإجماع أهل اللغة.

الوجه الثاني: أن النظر في الآية أضيف إلى الوجه، فالوجوه هي التي تنظر ومحل النظر في الوجه هما العينان.

الوجه الثالث: أنه وصف الوجوه بالنُضرة؛ وهي البهاء والسرور الذي يكون عليها، وهذا يدل على أنه حصل لها منتهى النعيم واللذة حتى علاها السرور، وذلك لا يكون إلا برؤية ربها لا بانتظاره كما قالت المعطلة؛ لأن الانتظار ينتج منه القلق والاضطراب لا الراحة والسرور؛ لأن المنتظر لا يدري ما يكون حاله بعد اللقاء أنعيمٌ أم عذاب.

الفِرَق الضالة المخالفة للحق في مسألة الرؤية

الفرقة الأولى: الجهمية، والمعتزلة، والرافضة بما فيهم الزيدية والخوارج بما فيهم الإباضية.

وهؤلاء ينكرون إنكاراً قطعياً رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وعمدوا إلى الآيات المُثْبتة لذلك فحرَّفوا معانيها تحت مسمى التأويل، فجعلوها بمعنى الثواب والانتظار للثواب والنعيم وما شابه ذلك من التحريف.

وأما الأحاديث المثبتة للرؤية فردوها متعللين بأنها أخبار آحاد، وأخبار الآحاد عندهم

تفيد الظن. قالوا: والعقائد لا تثبت بالظن، وهذه المقدمة من كونها آحاد وتفيد الظن والنتيجة أن ما أفاد الظن لا يقبل في باب العقائد كل ذلك من بدعهم وتأصيلهم الفاسد المخالف للكتاب والسنة وطريقة السلف.

وهذه طريقة جميع طوائف المعطلة في كل ما فيه إبطال لبدعهم إن كان من القرآن حرفوا معناه تحت مسمى التأويل وإن كان من السنة ردوه تحت مسمى خبر الآحاد.

مع أن قولهم بأن أحاديث الرؤية أخبار آحاد، ليس صحيحاً بل هي أحاديث متواترة كما تقدم بأنه رواها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من ثلاثين صحابياً. ولهم بعض الشبه ستأتي مع الرد عليها إن شاء الله.

الفرقة الثانية: الأشاعرة والكلّابية ومن على شاكلتهم ممن تفرع عنهم كالماتريدية، والصالحية، وغيرهم.

فهؤلاء أثبتوا رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، من حيث الجملة، ثم اختلفوا في كيفية هذه الرؤية، فجمهورهم قالوا «**يُرى لا إلى جهة**» وهذا قول غير معقول فإن الشيء المرئي لا بد أن يكون في جهة، وإنما قالوا ذلك فراراً من أن يُلزَموا بإثبات صفة العلو لأنهم ينكرونها.

وقال آخرون منهم: «**يُرى رؤية قلبية**» يدركه المؤمنون بقلوبهم فيزداد الإيمان واليقين والشعور أن الله معهم، وهذا باطل؛ لأن الإدراك والإحساس القلبي للمؤمنين حاصل حتى في الدنيا كما قال -عليه الصلاة السلام -في تعريف الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه**». ونُسِبَ إلى بعضهم القول: «**بأن الله يُرى من جميع الجهات**» وهذا أشد بطلاناً.

الفرقة الثالثة: غلاة الجهمية والحلولية والاتحادية من الصوفية فهؤلاء حصل عندهم غلو في هذه المسألة حيث قالوا: «**إن الله يُرى في الدنيا وفي الآخرة**» وكثرت ادعاءات كثير منهم بأنهم يرون الله جِهاراً نهاراً، بل نسبوا إلى أبي يزيد البسطامي أنه قال: «لو غاب الله عن نظري

طرفة عين لما عددت نفسي مؤمناً» وهذا من تلاعب الشيطان بهم. ولهم في ذلك حكايات يذكرونها في كتبهم من باب الكرامات في غاية السخف يُستحيى من ذكرها.

مسألة: إلى كم تنقسم الرؤية من حيث الجملة؟

الجواب: تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: **رؤية بصرية بالعينين**: وهي المرادة في هذا الباب، وضابطها: أن الفعل منها ينصب مفعولا واحداً، تقول: رأيتُ محمداً.

القسم الثاني: **رؤية قلبية**: بمعنى العلم والإدراك، وضابطها: أنها تنصب مفعولين، تقول: رأيتُ محمداً عالماً.

* **وزاد بعضهم قسماً ثالثاً**: وهي الرؤية المنامية.

مسألة: هل رؤية الله يوم القيامة خاصة بالمؤمنين أم يراه الكفار أيضاً؟

الجواب: في المسألة خلاف: وهي من المسائل التي يسوغ فيها الخلاف؛ لأن بعض الأدلة تحتمل هذا وهذا، وللعلماء فيها قولان:

القول الأول: قول الجمهور على أن رؤية الله خاصة بأهل الإيمان؛ لأنه نعيمٌ وكرامةٌ لا ينالها إلا المؤمنون، وصريح الأدلة تدل على هذا القول وهو الصحيح والله أعلم.

القول الثاني: قال به بعض أهل العلم بأن الكفار يرونه يوم القيامة لكنها رؤية غضب لا رؤية نعيم، قالوا ورؤيتهم لربهم غاضب عليهم أشد عليهم في العذاب من عدم رؤيته وهذا القول له أدلة تحتمل ذلك.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك رسالة مطبوعة ضمن مجموع الفتاوى بعنوان «**الرسالة البحرينية**».

تنبيه: أما بالنسبة للمنافقين فقد دل حديث أبي سعيد رضي الله عنهما في الصحيحين أنهم يرون ربنا سبحانه في العرصات ولفظه في مسلم: «**حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَّ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ التي رَأَوْهُ فِيهَا. قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللهَّ مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِاللهَّ شَيْئًا -مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا- حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهَّ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ اللهَّ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَلَ اللهَّ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ. ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ التي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا**».

فائدة: النظر في القرآن له ثلاث معانٍ:

١- **النظر بالعين**: وذلك إذا عدي بحرف الجر «إلى» سواء كان قبل كلمة النظر أو بعدها، كقوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَة ﴾ [سورة القيامة:٢٣]. وكقوله: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [سورة الغاشية:١٧].

٢- **بمعنى التفكر والتدبر والاعتبار**: وذلك إذا عدي بحرف الجر «في»، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الأعراف:١٨٥].

٣- **بمعنى الانتظار**: وذلك إذا لم يقترن بشيء من حروف الجر كقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [سورة الحديد:١٣]. أي انتظرونا.

وقد تأتي قرائن أخرى يفهم من خلالها إحدى هذه المعاني الثلاث وإن لم تقترن بها تقدم كقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْض ﴾ [سورة الإسراء:٢١]. فالنظر هنا بالعين.

شبهات منكري الرؤية من الجهمية والمعتزلة والرد عليهم

استدلوا على نفي الرؤية بأمور اشتبهت عليهم إما جهلاً وقصوراً في الفهم وإما تلبيساً، من أهمها آيتان في كتاب الله:

الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [سورة الأعراف:١٤٣]. قالوا: هذه آية صريحة بأن الله لا يرى، فإذا قال الله لموسى: لن تراني فإن غيره أولى، وقد أجاب عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم عليهما رحمة الله من عدة أوجه، وأثبت أهل العلم أن هذه الآية فيها دليل لإثبات الرؤية لا لنفيها، من عدة أوجه:

الوجه الأول: أن موسى عليه السلام لا يليق به أن يسأل الله ما لا يجوز.

الوجه الثاني: لو افترضنا أن موسى عليه السلام لم يكن يعلم حرمة ذلك فلماذا لم ينكر عليه ربه هذا السؤال كما أنكر على نوح عليه السلام لما سأل ربه نجاة ابنه، فلما لم ينكر الله عليه دلَّ على أن رؤية الله ممكنة.

الوجه الثالث: أن الله علّق الرؤية بشيء ممكن فقال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ [سورة الأعراف:١٤٣].

الوجه الرابع: أن هناك فرق بين قوله ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾، وقوله «لا أُرى» فلن تراني لا تفيد التأبيد إنما معناها نفي الرؤية في وقت معين، ويؤيد هذا قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا». فقيد امتناع الرؤية في حال الحياة الدنيوية، ولو قال: «إني لا أُرى» أو «لست مرئي» لكان هذا نافياً للرؤية، واستقام لكم الدليل.

الوجه الخامس: إذا جاز أن يتجلى الله للجبل وهو جماد فمن باب أولى أن يتجلى لأوليائه

في الدار الآخرة، ثم إن في تجلي الله للجبل دليل صريح على إمكان تجليه للمؤمنين ورؤيتهم له.

تنبيه: أما قولهم بأن «لن» تفيد التأبيد فهذا قولٌ باطلٌ شرعاً ولغةً فإن كلمة «لن» لا تفيد التأبيد المطلق حتى لو كان بعدها كلمة أبداً وإنما تفيد طول المدة فإن الله قد أخبر عن اليهود في تمني الموت فقال: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا ﴾ [سورة البقرة:٩٥]. أي الموت ثم أخبر أنهم يتمنونه وهم في النار فقال: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [سورة الزخرف:٧٧].

وقال تعالى: عن أحد إخوة يوسف ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ [سورة يوسف:٨٠]. فلو كانت «لن» تفيد التأبيد لما قال: ﴿ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾، فقيد ذلك بإذن أبيه، وما أفاد التأبيد لا يصح تقييده والله أعلم، فدل على أن «لن» تفيد النفي لمدة معينة لا مؤبدة.

الآية الثانية: استدلوا على إنكار الرؤية بقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [سورة الأنعام:١٠٣]. قالوا فنفى الله في هذه الآية أن تدركه الأبصار، وهذا صريح في نفي الرؤية، ومطلق غير مقيد، والجواب عليهم من وجوه:

الوجه الأول: أن الآية فيها دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، ووجه ذلك أن الله ذكرها من باب التمدُّح، والثناء على نفسه جل جلاله وتقدست أسماؤه.

ولو كان المقصود منها أنه لا يُرى فهذا ليس مدحاً ولا ثناءً فإن المعدوم لا يُرى، والله تعالى أجل و أعظم من أن يُشبِّه نفسه بالمعدومات فالآية فيها دليل عليكم لا لكم، قال ابن القيم في حادي الأرواح: «**والاستدلال بهذا أعجب فإنه من أدلة النفاة وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه وقال لي أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله فمنها هذه الآية و هي على جواز الرؤية أدل منها**

على امتناعها فان الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية وأما العدم المحض فليس بكمال» وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وتأمل حسن هذه المقابلة لفظا ومعنى وبين قوله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفي عليه فهو العظيم في لطفه اللطيف في عظمته العالي في قربه القريب في علوه الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير»**.

الوجه الثاني: فإذا قلتم فما معنى ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾؟

فيقال: هذا دليل على نفي الإدراك؛ وهو الإحاطة لا على نفي الرؤية فهو سبحانه يراه المؤمنون بأبصارهم لكن لا يدركونه؛ أي لا يحيطون به بأبصارهم عند رؤيتهم له. فالآية فيها إثبات الرؤية بذكر الأبصار فيها ونفي الإدراك وهو الإحاطة، وبين الرؤية والإدراك عمومٌ وخصوص على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن تحصل الرؤية للأشياء مع الإدراك كرؤية رجل ورؤية قلم، وغيرها من الأشياء التي يمكن رؤية جميعها.

الحالة الثانية: رؤية بدون إدراك؛ أي رؤية بدون إحاطة بالمرئي كما نرى السماء والبحر ومن ذلك رؤية الله سبحانه وتعالى فإن المؤمنين يرونه في الجنة ولا يدركونه أي لا يحيطون به بأبصارهم.

الحالة الثالثة: إدراك بدون رؤية، وهذا يكون في الأمور المعنوية؛ أي تشعر به لكن لا تراه ببصرك، كما قال الله تعالى عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ [سورة يونس:٩٠]. فالغرق ليس شيئاً حسياً يمكن للعين أن تراه، ومن ذلك العلم والعقل وغيرهما.

ثم إن تفسير السلف من الصحابة والتابعين على هذا ومما نقله ابن القيم في حادي الأرواح

عن شيخ الإسلام قوله: "قال ابن عباس لا تدركه الأبصار لا تحيط به الأبصار قال قتادة هو أعظم من أن تدركه الأبصار وقال عطية ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم فذلك قوله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عيانا ولا تدركه أبصارهم بمعنى أنها لا تحيط به إذ كان غير جائز أن يوصف الله عز و جل بأن شيئا يحيط به وهو بكل شيئا محيط وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه ولا يحيطون بكلامه وهكذا يعلم الخلق ما علمهم ولا يحيطون بعلمه".

إشكال: **فإن قال قائل**: كيف تفعلون بحديث عائشة في الصحيحين أنها قالت: «**من حدثكم أن محمداً رأى ربه -أي في ليلة المعراج -فقد كذب**» وفي رواية «**فقد أعظم على الله الفرية**» واستدلت بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾؟

والجواب من أوجه:

الوجه الأول: أن نفي أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه هو في الأمر المتفق عليه، وهو عدم إمكان الرؤية في الدنيا لا لنفي الرؤية في الآخرة؛ لأن الكلام كان حول رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه في ليلة المعراج ولا زال ذلك في الدنيا.

الوجه الثاني: سياق الآية التي في سورة الأنعام ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ في معرض الرد على المشركين الذين جعلوا لله زوجةً وولداً تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيرا. فبين لهم الله أن الرب الإله أعظم من أن يحيط به شيء فضلا أن يحتويه سكن أو زوجة أو ولد. فالآية على كل حال فيها نفي للإحاطة لا للرؤية لغةً وشرعاً.

الوجه الثالث: يقال: لو سلمنا لكم جدلاً أن عائشة رضي الله عنها أرادت نفي رؤية الله مطلقاً، مع استحالة ذلك، لقيل هذا اجتهادها ولم يقل بقولها أحد من السلف إضافة إلى أن كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنقول عنه بالتواتر في إثبات الرؤية مقدم على كل أحد، فكيف تتركون عشرات الأحاديث الثابتة وتأخذون بقول صحابي، مع أنه ليس بصريح فيما أردتموه.

الوجه الرابع: كيف تستدلون بقول عائشة رضي الله عنها وهو خبر آحاد؟!! فإنه لم يروه عن عائشة إلا ثلاثة مسروق والقاسم وقيس، ألستم تقولون: لا يقبل خبر الآحاد في باب العقائد، فكيف قبلتموه هنا، أم إنه الهوى والتلبيس؟؟ فوقعتم في بليتين:

إحداهما: عارضتم المرفوع بالموقوف.

والثانية: عارضتم المتواتر بالآحاد.

وأحببت أن أنقل ها هنا كلاماً نفيساً لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حادي الأرواح حول هذه المسألة، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الباب الخامس والستون: في رؤيتهم ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرةً كما يُرى القمر ليلة البدر وتجليه لهم ضاحكاً إليهم». **قلت**: الحديث الوارد في ضحكه إليهم غير ثابت.

قال: «هذا الباب أشرف أبواب هذا الكتاب وأجلها قدراً وأعلاها خطراً وأقرها عيناً لأهل السنة والجماعة، وأشدها على أهل البدع والضلالة. وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون ومن حبل الله منقطعون وعلى مسبّة أصحاب رسول الله عاكفون وللسنة وأهلها محاربون ولكل عدوّ لله ورسوله ودينه مسالمون، وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون وعن بابه مطرودون، أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين وأعداء الرسول وحزبه».

*****

المبحث التاسع: صفة الكلام لله سبحانه وتعالى

إثبات صفة الكلام لله جل وعلا وأن الله يتكلم بما شاء وكيف شاء ومتى شاء، وأن من أعظم كلامه سبحانه وتعالى القرآن الكريم، ثابت بالقرآن والسنة والإجماع والعقل والفطرة، ووقع الاختيار على هذه المسألة وهذا الباب من جملة الصفات لأنه كثر في هذه الصفة الخوض من أهل البدع وأدخلوا فيها من البدع والمحدثات والتأويلات والتحريف ما ليس منها، ولذلك نجد عامة علماء الحديث والعقيدة وعلماء السنة على مختلف الأزمنة يذكرون هذه المسألة في كتب العقائد وهي مسألة مهمة لها تعلق بالتوحيد ولها تعلق بالعبادات والمعاملات.

والكلام: هو صفة من صفات الله تبارك وتعالى الذاتية والفعلية.

فصفة الكلام: هي في الأصل صفة فعلية لكن قد يقال فيه صفة ذاتية أيضاً فهو: باعتبار صفة ذاتية وباعتبار آخر صفة فعلية، لذلك يقال فيها: صفة ذاتية فعلية.

وتقدم معنا أن الصفة الذاتية: هي التي لا يزال ولم يزل الله تعالى متصف بها دائماً وأبداً كالعلم، والقدرة، والقوة، والعزة فهي صفات دائمة لله جل وعلا والصفات الفعلية: هي التي يفعلها الله متى شاء كالاستواء، والنزول، والغضب، والرضا، ونحوها من الصفات المتعلقة بمشيئته.

فإن قيل: كيف تكون ذاتية وفعلية في نفس الوقت؟

فالجواب: ذاتية باعتبار أن الله جل وعلا تكلم في الأزل، ويتكلم بما شاء متى شاء وإلى أبد الآباد، فاعتبار أصل الصفة فهي ذاتية وباعتبار آحاد الكلام فهي فعلية والله أعلم.

ويعبر عنها بعض أهل العلم بقولهم: الكلام صفة ذاتية النوع فعلية الآحاد، أي آحاد

الكلام هذه فعلية لأن الله سبحانه يتكلم متى شاء. وباعتبار كون الله متكلم قادر على ذلك متصف بهذه الصفة فهذه صفة ذاتية.

وقد خاض أهل البدع كثيراً في مسألة كلام الله جل وعلا، ولذلك أكثر العلماء من ذكر هذه الصفة والرد على المخالفين فيها.

وصفة كلام لله عز وجل ثابتة له سبحانه بالأدلة المتكاثرة من القرآن والسنة المتواترة وبإجماع السلف ويدل على ذلك العقل والفطرة.

أما من القرآن فالأدلة كثيرة ومتنوعة وجاءت بألفاظ متعددة وكلها تدل على أن صفة الكلام لله صفة حقيقة تليق به سبحانه ولا تحتمل التأويل.

فجاءت بلفظ الكلام كقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [سورة النساء:١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة:٦].

وجاء بلفظ النداء كقوله تعالى: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ [سورة مريم:٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الشعراء:١٠]. في أدلة كثيرة وأكثرها وردت في حق موسى بلفظ المناداة، وهي من أقوى الأدلة على إثبات صفة الكلام لأن النداء لا يكون إلا بصوت مسموع.

وجاءت بلفظ المناجاة كقوله تعالى مع موسى: ﴿ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾، ولكل نوع من الألفاظ جملة من الآيات.

وأما من السنة فالأدلة أكثر، ومن أشهرها حديث عدي بن حاتم في الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه**»، وما ورد في أحاديث المعراج في تكليم الله لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وغيرها من الأدلة الكثيرة الثابتة في السنة.

* وأجمع السلف ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا على إثبات صفة الكلام لله سبحانه

وتعالى.

وأما دلالة العقل على ذلك: فإن كل عاقل يعلم أن المتكلم والقادر على الكلام أكمل وأحسن حالا من الأبكم وممن لا يقدر على الكلام، فإذا كان هذا حاصل في المخلوقات أن المتكلم أفضل من غير المتكلم فكيف بالخالق سبحانه وتعالى، ومن الذي وهب العبد القدرة على الكلام، إلا الله، أليس معطي الكمال أولى به؟؟ ومع هذا يصفه أهل البدع أنه لا يتكلم، عياذاً بالله.

فالله سبحانه يتكلم بما شاء وكيف شاء، وإلا كيف وصلت إلينا الشرائع، وكيف وصلت الكتب السماوية، وكيف أوحى الله إلى الأنبياء، وكيف نزلت الملائكة بالأوامر، وكيف عرف الناس الحلال والحرام، وكيف جاءت هذه الأمور كلها والله تعالى لا يتكلم بزعم أهل البدع لا كثرهم الله.

وهذه المسألة نفي صفة الكلام عن الله من أعظم البلايا التي جاء بها أهل البدع، وحصل بسببها بلاء عظيم على أئمة السلف في القرن الثالث الهجري، لما زين رؤوس المعتزلة لبعض الخلفاء امتحان أهل العلم بذلك، فصاروا بين ممتنع مقتول أو مسجون وبين مجيب بعد سجن وضرب وإكراه وتخويف، وإلى الله المشتكى.

معتقد أهل السنة في صفة الكلام لله سبحانه

أجمع السلف على أن الله تعالى له صفة الكلام وأنه سبحانه يتكلم حقيقية بصوت وحرف مسموع متى شاء وكيف شاء ومع من شاء من عباده.

أما أهل البدع فقد انقسموا من حيث الجملة في صفة الكلام إلى قسمين:

القسم الأول: أنكروا صفة الكلام فقالوا: الله تعالى لا يتكلم ولا يجوز في حقه الكلام، لأن إثبات ذلك يلزم منه التشبيه، ورأس هؤلاء الجهمية والمعتزلة والرافضة.

القسم الثاني: أثبتوا صفة الكلام لله من حيث الجملة ثم أدخلوا في إثباتها تحريفات وتأويلات فاسدة فكان منتهى قولهم وحقيقته نفي صفة الكلام، ورأس هؤلاء الكلّابية والأشاعرة والكرّامية ومن تفرع عنهم. وإليك تفاصيل ذلك.

أقوال الفرق الضالة في كلام الله سبحانه وتعالى

أولاً: عند الكلام حول صفة الكلام أكثر ما يتطرق أهل العلم للكلام حول القرآن؛ لأنه من أعظم المسائل التي نشأ فيها الخلاف بين أهل الإسلام ضمن صفة كلام الله.

والخلاصة: أن الناس انقسموا في صفة الكلام لله عز وجل وفي القرآن إلى تسعة أقوال: ذكرها ابن أبي العز في شرح الطحاوية، نذكر منها أشهرها:

القول الأول: وهو أبعد الأقوال وأسوأها وهو قول الفلاسفة: حيث قالوا لا يوجد شيء اسمه كلام حقيقة وهذا القرآن الذي بين أيدينا والكتب السابقة إنما هي معانٍ فاضت بها قلوب هؤلاء الأنبياء فعبروا عنها بهذه الكتب [يعني أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصلت له معاني فيوضات وإلهامات وقلبه فاض بمعانٍ عبر بلسانه عن هذه المعاني بالقرآن].

فالقرآن عندهم ليس كلام الله جل وعلا إنما هو معانٍ فاضت في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فعبر عنها بلسانه، والتوراة: عبارة عن معانٍ فاض بها قلب موسى عليه الصلاة السلام فعبر عنها بلسانه، والإنجيل: عبارة عن معانٍ فاضت بها قلب عيسى فعبر عنها بلسانه.

فهي معانٍ تفيض في القلب فيعبر عنها النبي، فهذا سماها توراة، وهذا سماها إنجيلاً، وهذا

سماها قرآناً وليس منها ما هو كلام لله حقيقة، وهذا القول كفر ظاهر.

القول الثاني: قول الجهمية والمعتزلة والرافضة قالوا: بأن الكلام ومنه القرآن مخلوقاً منفصلاً عن الله وليس صفة من صفاته، ولا يخفى ما في هذا القول من الفساد ضرورة.

القول الثالث: قول الأشاعرة والكلابية والماتريدية قالوا: الكلام ومنه القرآن صفة لله إلا أنها صفة قائمة بذاتها في نفسه لم يتكلم الله به بحرف ولا صوت إنما هو كلام نفساني حكاه جبريل عن الله أو عبّر عنه به.

فالأشاعرة قالوا: حكاية، والكلابية قالوا: عبارة، والفرق بين الحكاية والعبارة أن الحكاية: تكون بنفس اللفظ والمعنى، والعبارة تكون بلفظ آخر لكن المعنى واحد.

وخالف أبو منصور الماتريدي فقال: الكلام قائم بذاته خَلقَهُ في غيره؛ أي في جبريل.

القول الرابع: قول الكرّامية: أثبتوا لله صفة الكلام لكنهم قالوا: بأن الله تعالى لم يكن متكلم في الأزل ثم تكلم وهذا واضح البطلان لما يلزم منه من لوازم باطلة، منها وصف الله بالنقص ثم بالكمال.

تنبيه: عند الأشاعرة والكلابية والماتريدية الذين قالوا: هو معنى قائم بذاته، معنى ذلك أن كلام الله شيء واحد قائم بالذات: يعني لا يوجد إلا كلام واحد لكن لما كان بالعربية سمي قرآناً، ولما كان بالسريانية سمي إنجيلاً، ولما كان بالعبرية سمي توراة وإنجيلاً وإلا فهو نفس الكلام، وهذا يدل على بطلانه الكتاب والسنة والعقل والواقع: لأنه يلزم من هذا أن جميع الشرائع متفقة جملة وتفصيلا وإنما تختلف في نطق الكلمات وكتابتها، ولا يخفى فساد هذا شرعاً وعقلاً وواقعاً.

شبه القائلين بأن القرآن مخلوق

لهم في الاستدلال لهذه المقالة الباطلة عدّة شبه من أهمها:

الشبهة الأولى: استدلوا بقول الله جل وعلا ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [سورة الزمر:٦٢]، قالوا والقرآن شيء فهو مخلوق، لدخوله في عموم كل!

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: هذا من جهلكم بلغة القرآن واختلاف السياق في كلام العرب، فإن كلمة «كل» وإن كانت تدل على العموم فإنها لا تدل على العموم المطلق في جميع حالاتها فقد تدل على العموم المطلق، وقد تدل على العموم المخصوص وهذا يعرف بالقرائن ومن خلال سياق الآيات، فكلمة «كل» في هذه الآية تدل على العموم المخصوص، فمعنى الآية خالق كل شيء مما هو مخلوق ، ولو جعلت كلمة «كل» دالة على العموم المطلق في جميع حالاتها للزم من ذلك لوازم باطلة في بعض المواضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الأنعام:١٩]، فدلت الآية أن الله شيء لكن ليس كالأشياء فهل يقال بأنه مخلوق والعياذ بالله لأن «كل» تفيد العموم، وهو داخل في عموم كل لأنه شيء.

والجواب: لا يقال ذلك فإنه أعظم الكفر، فتعين أن كل تفيد العموم المطلق تارة، والعموم المخصوص تارة أخرى، ويعرف المراد منهما بالقرائن، ومما يدل على ذلك أيضاً: قوله تعالى في ملكة اليمن: ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [سورة النمل:٢٣]، مع أنها لم تؤتى كثيراً من الأشياء التي كانت عند سليمان، إذاً فمعنى ﴿ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾؛ أي من كل شيء يصلح للملوك «فكل» هنا مخصوصة بأشياء معينة دل على ذلك قرينة الحال وسياقة القصة.

ومثلها قوله تعالى في الرياح التي أرسلها الله على قوم عاد ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأحقاف:٢٥].، مع أنها لم تدمر البيوت والمساكن ولم تدمر الجبال بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [سورة الأحقاف:٢٥].، وقد قال: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي مما قضى الله أن يدمر وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة الزمر:٦٢].، مخصوص بما هو مخلوق، فلا يدخل في ذلك القرآن.

الوجه الثاني: أن يقال لهم: ألستم تقولون بأن أفعال العباد لا يخلقها الله فبأي دليل أخرجتم أفعال العباد من عموم «كل» في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة الزمر:٦٢]، أليست أعمال العباد شيء؟ فكيف أخرجتم من العموم ما دلت الأدلة على كونه مخلوقاً، وأدخلتم فيها ما ليس بمخلوقٍ؟؟ أليس هذا هو عين التلاعب والهوى فأي تناقض وقعتم فيه أبين من هذا؟! فدل على أن تعاملكم مع الأدلة بالهوى لا بالتسليم والانقياد.

الشبهة الثانية: استدلوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [سورة الزخرف:٣]، قالوا: وكلمة «جعل» في اللغة تأتي بمعنى خلق، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [سورة الأنعام:١]؛ أي خلق الظلمات والنور، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا ﴾؛ أي خلقناه قرآناً عربياً، كذا قالوا!

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن يقال لهم: هذا يدل على جهلكم العظيم بلغة العرب فإن كلمة «جعل» تأتي في اللغة على معان منها: بمعنى خلق وتأتي بمعنى صيّر، وقد وردت في القرآن بهذين المعنيين والذي يدلنا على أحد المعنيين هو أن كلمة «جعل» إذا نصبت مفعولا واحداً فهي بمعنى خلق كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ [سورة يونس:١٤].، وإذا نصبت مفعولين فهي بمعنى صيّر، ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ وقوله ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا ﴾ [سورة فصلت:٤٤].

الآية الأولى: الهاء مفعول أول، والقرآن مفعول ثاني، وعربياً صفة.

الآية الثانية: الهاء مفعول أول، والقرآن مفعول ثاني، وأعجميا صفة.

فنصبت مفعولين فيكون معناها صيّر، لا خلق.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [سورة الإسراء:٢٩]. معناها: تصير يدك إلى عنقك، كناية عن البخل.

الوجه الثاني: أننا لو جعلنا كلمة «جعل» بمعنى خلق مطلقاً للزم من ذلك لوازم باطلة بل لوازم كفرية يكفر بها من يلتزمها، فمثلا قول الله جل وعلا: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ [سورة الزخرف:١٩]. فلو كانت «جعل» بمعنى خلق فسيكون المعنى: وخلقوا الملائكة، وهذا باطل لأن الملائكة خلقهم الله وليس المشركون، وأشد من هذا قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [سورة النحل:٩١]، هنا «جعل» بمعنى صيّر المفعول الأول لفظ الجلالة، والثاني «كفيلا». ولو كانت «جعل» بمعنى خلق فسيكون المعنى: وقد خلقتم الله والعياذ بالله.

فيقال لهم: هل «جعل» هنا بمعنى خلق؟ لو قالوا بمعنى خلق كفروا، فلو كانت هنا «جعل» بمعنى خلق لكان معنى الكلام كفراً أكبر؛ أي أن الناس خلقوا الله -والعياذ بالله- فدل هذا على ما تقدم أن «جعل» إذا نصبت مفعولين تكون بمعنى صيّر، فلم يفهم هؤلاء المسألة شرعاً ولا لغةً!

ومثله قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ} [سورة الحجر:٩١]، فلو جعلنا «جعل» بمعنى خلق لكان المعنى: الذين خلقوا القرآن، إذاً نقول لهم: بينوا لنا مَن خلق القرآن الله أم الناس؟

إذا قلتم خلقه الله فنقول فالله تعالى يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يعني خلقوا القرآن،

هل المشركين خلقوا القرآن والعياذ بالله، فإن قالوا: بل خلقه الله، قيل لهم: بطل استدلاكم بهذا، وأميتت شبهتكم والحمد لله.

الشبهة الثالثة: قالوا: الإثبات بأن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت يلزم منه لوازم باطلة منها: أن يكون له لساناً وشفتين وحلقاً وهذا تشبيه وتجسيم لا يليق بالله.

والجواب: أن يقال هذا ليس بلازم بل له صفة الكلام ولا يلزم منه هذه الأشياء؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء كما قال عن نفسه ولأنه قد يحصل الكلام ويسمع من بعض المخلوقات دون الحاجة إلى هذه الأشياء، وقد أخبر الله جل وعلا أن الأيدي والأرجل والجلود تشهد وتنطق على العبد يوم القيامة وليس لها لسان ولا شيء من لوازمكم، والله تعالى أجل وأكرم.

بل قد سمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تسبيح الطعام والحصى بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دون هذه الأشياء أنطقها الله بكيفية يعلمها سبحانه، فإذا كان هذا في المخلوقات فالله أعلى وأجل، تنزه الله وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيرا.

الشبهة الرابعة: قالوا قد أخبر الله بأن القرآن من قول جبريل أو محمد وليس من قوله فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ [سورة الحاقة:٤٠]، وهذا الرسول جبريل أو محمد فليس بقولٍ لله، وأقوال العباد مخلوقة سواء خلقها الله أو غيره.

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا من أساليب القرآن واللغة العربية في إضافة الشيء إلى من قاله مبلغاً لا مبتدئاً فجبريل عليه السلام أو محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تلفظا بالقرآن مبلغين له لا أنه بدأ منهما بدليل الآية نفسها حيث أخبر الله بأنه قول رسول فسماه رسولاً، والرسول إنما يبلغ الرسالة التي أرسله بها غيره، والذي أرسل جبريل أو محمد هو الله فالقول ابتداءً قول الله، والرسول إنما قاله مبلغاً عن الله لا ابتداءً.

الوجه الثاني: يقال لهم: هل أنتم تقولون بأن القرآن قول محمد وليس قول الله، فإن قلتم لا نقول به بطل استدلالكم، وإن قالوا: نقول به فيقال لهم هذا هو الكفر بعينه الذي نص عليه الله جل وعلا في كتابه، فقد أخبر الله بأن من قال إن القرآن كلام البشر أنه قد كفر وأنه سيصليه سقر.

فالوليد بن المغيرة لما قال هذا قول البشر، أي: قول محمد، ليس من عند الله، فأخبر الله أنه قد كفر وسيصليه سقر كما في قوله في سورة المدثر: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾.

مسألة: ما هو مذهب الأشاعرة في كلام الله؟

الجواب: مذهبهم أن كلام الله معنى واحد قائم بالذات كلام نفساني إلا أن الكلابية قالوا حكاية عن الله، والأشاعرة قالوا عبارة، كما تقدم.

أهم شبه الأشاعرة في تقريرهم بأن كلام الله نفساني في نفسه ليس بصوت ولا حرف، استدلوا ببعض الأدلة من الكتاب والسنة ظنوا أنها تدل على أن من الكلام ما يكون نفسانياً، من هذه الأدلة التي استدلوا بها قول الله في المنافقين: ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [سورة المجادلة:٨]، قالوا فسماه الله قولا وهو في أنفسهم فدل على أن ما في النفس يسمى كلاماً.

والجواب عن هذه الآية بأن يقال: المراد بقوله تعالى: ﴿ فِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾؛ أي مع بعضهم سراً بدليل الجمع، ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾؛ أي يقول بعضهم لبعض سراً، فليس القصد في نياتهم وهذا الذي عليه عامة المفسرين، وهو المتبادر إلى الذهن الذي يفهمه كل عاقل،

وهو كقوله تعالى في توبة بني إسرائيل ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: بعضكم بعضا.

واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ [سورة الأعراف:٢٠٥]. قالوا:

فسماه الله ذكراً مع أنه في النفس.

الجواب: أن الآية فيها رد عليهم لو أكملوها، فإن الله تعالى يقول بعدها: ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي ذكر بصوت منخفض لقوله ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾، أي دون رفع صوت، وليس المعنى بدون صوت بالكلية، وآخر الآية يبين أولها لا كما فهمه هؤلاء الأغتام.

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ ﴾ [سورة الملك:١٣].، قالوا: سماه الله قولاً مع أنه سر.

والجواب واضح من الآية، وهو أن الله عز وجل ذكر السر والجهر فدل على أن المراد بقوله ﴿ وَأَسِرُّواْ ﴾ الصوت الهادئ أي: الكلام الذي يكون بصوت منخفض، ولو كان المراد ما لم يتكلموا به لما قرنه بالجهر والله أعلم.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [سورة آل عمران:٤١].، فقالوا: فسمى الرمز كلاماً مع أنه ليس بلفظ وإنما إشارة.

والجواب أن يقال لهم: القرآن يفسر بعضه بعضا فإن هذه الآية في شأن زكريا عليه السلام في سورة آل عمران وقد ذُكرت القصة في سورة مريم بلفظ ﴿ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [سورة مريم:١٠].، بدون ذكر الرمز ولا الإشارة، فدل ذلك على أن الاستثناء في سورة آل عمران منقطعاً، فيكون المعنى: آيتك ألا تكلم الناس ولكن ترمز لهم رمزاً وتشير إليهم إشارة، بمعنى أن الرمز ليس من الكلام ولكن أشر لهم فالرمز شيء والإشارة شيء فهو استثناء منقطع، والرمز ليس من الكلام ولو كان من الكلام لم ينفه الله بقوله: ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ﴾.

ثم لنتنزل معكم أن في الآية إشكال فكيف تتركون عشرات الأدلة الصريحة وتتشبثون بالمتشابه وهل هذا إلا طريق الزائغين ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ

ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [سورة آل عمران:٧].

* ومما استدلوا به أيضاً: قول عمر في بيعة أبي بكر كما في صحيح البخاري قال: «وكنت قد زورت في نفسي مقالة، قالوا: فسمى عمر ما في نفسه مقالة إذاً فالكلام يكون في النفس».

والجواب: أن في تكملة الحديث حجة عليكم من جهتين:

الأولى: قوله: «زورت في نفسي»: أي هيأت كلاماً؛ هيأ وفكر في شيء يقوله.

الثانية: أنه قال بعدها: زورت مقالة أردت أن أقولها لكنه لم يقلها إنما هيأ وفكر في ألفاظ لكنه لم يقلها، فدل على أن ما في النفس وما في القلب لا يكون قولا إلا إذا نطق به اللسان، ويدل على هذا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**» رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

* ومما استدلوا به قول الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا**

قالوا: فجعل الكلام في الفؤاد وفي القلب والنفس.

والجواب على هذا البيت من وجوه:

الوجه الأول: هذا البيت من الشعر فيه تحريف وإنما المُثبَت في النسخ المعتمدة «**إن البيان لفي الفؤاد**» وليس الكلام، وبين العبارتين فرق.

الوجه الثاني: لو سلمنا لكم بأن هذه اللفظة ثابتة، فقائل هذا الشعر نصراني وهو الأخطل فكيف يستدل بكلام نصراني لإبطال ما في القرآن والسنة من الأدلة، مع ما هو معلوم من فساد معتقد النصارى في ألوهية الله.

فائدة: ذكر بعضهم في الرد على هذا البيت قرابة عشرة أوجه وهذه أهمها، وقد استطرد

ابن القيم في «الصواعق المرسلة» وأبطل هذا القول من عدة أوجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

تنبيه: مما يرد به على الجهمية والمعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق أن يقال لهم: قد فرق الله جل وعلا بين خلقه وأمره فقال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [سورة الأعراف:٥٤]، وجعل القرآن من أمره لا من خلقه، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [سورة الشورى:٥٢]، والأمر ليس بمخلوق، والله أعلى وأعلم.

*****

المبحث العاشر: طاعة ولاة الأمور وكيفية التعامل معهم

إن من أصول أهل السنة والجماعة المجمع عليها طاعة ولاة أمور المسلمين في غير معصية، وبهذا الأصل يعرف صاحب السنة من صاحب البدعة، فإن أهل السنة والجماعة هم الذين اجتمعوا على السنة واجتمعوا على ولي أمرهم المسلم، وأهل البدعة والفرقة افترقوا عن الكتاب والسنة وافترقوا عن ولاة الأمور من المسلمين.

وهذا أصل عظيم عند أهل السنة وميزة تميزوا بها عن غيرهم من أهل البدع.

والذي حملهم على هذا الأصل والإشادة به وإدخاله في كتب العقائد كثرة الأدلة الواردة في ذلك في الكتاب والسنة، وعظيم المفاسد التي حصلت على مر الأزمان بسبب الخروج على ولاة الأمور، ولست في صدد ذكر الأدلة وسردها فإن الأدلة مواضعها معروفة منها:

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [سورة النساء:٥٩]، وهي من أصرح الأدلة في طاعة ولاة الأمور.

ومنها: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيحين: «**من أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصى الأمير فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله**».

وفي الصحيحين في البيعة التي أخذها على المهاجرين والأنصار « **قال: وألا تنازعوا الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه سلطان أو برهان**».

والأحاديث في الصحيحين أو أحدهما مع الأحاديث الصحيحة خارج الصحيحين تبلغ عشرات الأحاديث. وقد عد بعضهم الأحاديث التي فيها الأمر بطاعة ولاة الأمور في غير معصية من الأحاديث المتواترة. ومن أشهرها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين: «**السمع**

والطاعة في المنشط والمكره، وفيما تحب وفيما تكره» وقوله عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح: «**فإذا رأيت من أميرك شيئاً تكرهه فاكره ما يأتي من معصية الله، ولا تنزعن يداً من طاعة**»، وحديث حذيفة في مسلم: «**اسمع وأطع ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك**»، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السمع والطاعة ولو تأمر عليكم عبدٌ حبشي**» وغيرها من الأدلة المتكاثرة في وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية.

وخالف في هذه الأصل عامة أهل البدع، فَقَلَّ أن تجد مبتدعاً إلا وقد خالف في هذا الأصل إما تصريحاً وإما تلميحاً وإما قولا وإما قولا وفعلا.

ووجود ولي الأمر من الأمور التي لا تنتظم حياة الناس إلا بها، وإلا عظم الشر وكثرت الفوضى وانقطعت السبل، وانتشر من الشر ما الله به عليم، فكان من الضروريات في حياة الناس وجود ولي أمر يأتمر الناس بأمره ويحتكمون بحكمه ويقودهم ويسوسهم.

ولأهمية ولاية الأمر في الإسلام: كان لمن يلي أمور المسلمين شروطاً فلا يجوز أن يلي أمر المسلمين إلا من توفرت فيه هذه الشروط:

الشرط الأول: أن يكون مسلماً: وهذا شرطٌ مجمع عليه فلا ولاية لكافر على مسلم، لقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء:١٤١].

الشرط الثاني: الذكورية: بأن يكون رجلاً ولا تجوز ولاية امرأة، وهذا مجمع عليه في الولاية العامة الكبرى، وحصل بعض الخلاف في الولاية الصغرى: فيما دون الخلافة كمسؤولة على بلدة أو قضاء، حصل شيء من الخلاف من بعض الأحناف، والجمهور على اشتراط الذكورية في الولاية الكبرى والصغرى، وهو الصحيح الذي لا شك فيه.

الشرط الثالث: أن يكون عاقلا: فلا ولاية لمجنون ولا لمختل عقلياً أو نفسياً ولا لسيئ التصرف.

الشرط الرابع: أن يستتب له الأمر ولا يبقى له منازع ابتداءً، أما لو ظهر له من ينازعه بعد أن استتب له الأمر فلا عبرة بمن نازعه.

الشرط الخامس: أن يكون قرشياً: وهذا شرط وجوب وليس شرط صحة وهو مجمع عليه فلو كان غير قرشي صحت ولايته لكنه خلاف الأولى.

الشرط السادس: الحرية: عند جمهور أهل العلم وهو الصحيح فلا ولاية لعبد؛ لأن العبد لا يملك نفسه فكيف يملك غيره.

ولما قامت دولة المماليك في مصر بعد انقرض الأمراء الأيوبيين في مصر من أحفاد صلاح الدين الأيوبي، قام بعض العلماء فقال: «لا تصح لكم ولاية» حتى يُعتقون أولا، فلما لم يعملوا بفتواه أراد أن يخرج من مصر فلحقه كثير أهل مصر، وقالوا: إن خرج خرجنا معه، فاضطر الولاة المماليك أن يلحقوا به ويردوه ويعملوا بفتواه وجعل من يشتريهم ثم يعتقهم وهم الولاة ورؤساء الجيش لكن كانوا يعظمون العلم والعلماء، وقد أقام الله على يد المماليك خيراً عظيماً و رفعوا راية الجهاد، وأخرجوا الصليبين من جميع بلاد الشام وكانت سلطنتهم السلطنة الوحيدة في بلاد الإسلام التي كانت قائمة بأمر المسلمين وحمايتهم والجهاد في سبيل الله فكانوا يقاتلون التتر والنصارى والباطنية. ثم ضعف أمرهم، وانتهت دولتهم على يد السلطان العثماني: «سليمان القانوني» سنة ٩٢٣هـ.

والمقصود أن الحرية شرط أساسي ومهم لولي أمر المسلمين.

وأما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولو عبداً حبشياً**» فالمراد الحث على طاعة ولي الأمر، كائناً من كان، حتى على افتراض كونه عبد، فاسمعوا وأطيعوا حتى لا تختل الأمور فإنه لا نظام ولا اجتماع ولا قوة إلا بطاعة ولي الأمر والتفرق عن ولي الأمر تفرق للمسلمين والواقع خير شاهد.

تنبيه (١): بالنسبة للقب «خليفة» لا يجوز أن يطلق على ولي الأمر إلا إذا كان قرشياً، فإذا كان غير قرشي فيقال فيه: «سلطان وأمير وملك، ونحو ذلك».

تنبيه (٢): ما تدعيه الشيعة من أن ولي الأمر لا بد أن يكون هاشمياً، وأن غير الهاشمي لا تجوز ولايته ادعاءٌ باطل لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة ولا من أقوال أهل العلم، بل الأدلة بخلاف ذلك.

تنبيه (٣): زاد بعض أهل العلم شروطاً أخرى غير ما تقدم: كالكفاءة، وحسن التصرف، وعدم الوقوع في الفسق والصحيح أن عدم وجود هذه الشروط تؤثر في ولايته لكن لا تبطلها فليست شروط صحة، وإنما هي شروط كمال.

فائدة: الإمامة تكون بواحد من ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يختاره أهل الحل والعقد «العلماء والوجهاء وكبار الدولة»، كما حصل لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الأمر الثاني: أن يوصي له الإمام الذي قبله كما وقع لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أوصى له أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأمر الثالث: أن يغلب على الإمامة بالقوة فيستتب له الأمر ولم يبق له منازع.

والدليل على هذا فعل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه لما تنازع عبد الملك بن مروان وابن الزبير توقف عبد الله بن عمر ولم يبايع أحدا منهما، فهذا صار خليفة في الحجاز وذاك خليفة في الشام فلم يبايع لأحد منهما، ولما قُتل ابن الزبير واستتب الأمر لعبد الملك وأمنت البلاد وتوقف القتال أرسل ابن عمر بيعته لعبد الملك بن مروان عنه وعن أولاده. وكان قد أرسل له ابن الزبير يريد منه البيعة، وعبد الملك بن مروان يريد منه البيعة فاعتذر لهما بأنه لن يبايع لخليفتين في وقت واحد، أو لأحدهما ولم يستتب له الأمر، فهذه ثلاث طرق يصير بها ولي الامر وليًا

شرعياً.

شبهات الخوارج على ولاة الأمور والرد عليها

من أهم أصول معتقد أهل السنة والجماعة عدم الخروج على ولي الأمر المسلم، ووجوب طاعته في طاعة الله عز وجل، وكراهة ما يأتيه أو يأمر به من معصية الله، لكن لا ننزع يداً من طاعة فنكره ما يأمر به ولي الأمر من المعاصي أو يتساهل فيه أو يعمله، ولا نزع يداً من طاعة، وإن استطعنا أن ننصح له فننصح سراً كغيره من الناس كما أن أي شخص يحتاج أن تنصحه سراً وإذا نصحته بين الناس اعتبرها فضيحة ولا يرضى بذلك فولي الأمر من باب أولى، لا كما يفعل بعضهم يشهر بولي الأمر على المنابر وفي المهرجانات والمظاهرات وينشر مساوئه في مجامع الناس وربما افترى عليه ونسب إليه ما لم يعمل، ويسمي هذا نصيحة، وهي في الحقيقة ظلم وفضيحة لا يرتضيها آحاد الناس لنفسه، فكيف بولي أمر بما له من الحق والطاعة والإجلال، فهذه طريقة الخوارج ومن تشبه بهم، وهم ما بين مستقل ومستكثر، فمنهم من مذهبه جواز الخروج على ولي الأمر صراحة بمجرد أن يقع منه ظلم أو فسق، وهذا مذهب الخوارج والمعتزلة و الرافضة، و تبعهم على ذلك و إن كان بصورة أقل مع بعض المفارقات جماعات معاصرة منهم:

١- **الإخوان المسلمين**: والغالب عليهم أن عندهم خروج جزئي، بمعنى أنهم يرون الخروج بالقول والفعل، إلا أنهم لا يكفرون ولاة الأمور لا سيما المتأخرون.

٢- **السرورية، وهم قسمان**:

القسم الأول: منهم من هو خارجي محض يصرح بالتكفير.

القسم الثاني: ومنهم من هو أقرب إلى مذهب الإخوان المسلمين عنده خروج جزئي. وعلى كل حال: قَلّ أن تجد مبتدعاً إلا وعنده في هذا الباب خلل.

٣- تنظيم القاعدة وداعش وجماعة الهجرة والتكفير، وهؤلاء عامتهم على مذهب الخوارج الأول، مع فوارق يسيرة.

شبهات الخارجين على ولي الأمر المسلم

شبهات الخوارج من حيث الجملة تدور على أمرين:

الشبهة الأولى: شبهة تكفير الحكام.

الشبهة الثانية: شبهة الخروج عليهم: إما لاعتقاد كفرهم أو فسقهم.

❋ يعتقد عامة الخوارج المتقدمين أن ولي الأمر المسلم إن ارتكب كبيرة من الكبائر أو أمر بها صار كافراً.

مسألة تكفير الحكام

مسألة: لماذا يكفر الخوارج الحاكم المسلم بمجرد المعصية؟

لهم في تكفير ولاة الأمور المسلمين شُبه أهمها شبهتان:

الشبهة الأولى: قالوا حكام المسلمين يحكمون بغير ما أنزل الله، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة المائدة:٤٤]، وفي الآية الثانية:

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [سورة المائدة:٤٥].، وفي الآية الثالثة: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [سورة المائدة:٤٧].، لكنهم يأخذون الآية الأولى فقط ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، قالوا: فقد حكم الله على من لم يحكم بما أنزل الله بأنه كافر فنحن نكفره بنص القرآن ولأن الله كفره فوجب علينا أن نكفر من كفره الله.

والجواب: عن هذا الاستدلال من وجوه:

الوجه الأول: يقال لهم: قد وصف الله تعالى في كتابه من حكم بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف «الكافرون -والظالمون -والفاسقون» فلماذا أخذتم وصف الكفر فقط ولم تأخذوا وصف الظلم والفسق، فهذا منكم إيمان ببعض القرآن دون بعض وهذا ليس من سيما المؤمنين، وإنما من سيما اليهود ومن تشبه بهم.

الوجه الثاني: يقال لهم: من أعلم بتفسير القرآن أنتم أم أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعهم بإحسان؟

فإن قالوا: نحن أعلم فهذه مكابرة كافية في إبطال مذهبهم، وكذب مفضوح لا يقبله من أدنى مسكة من عقل، **وإن قالوا**: الصحابة والتابعون أعلم، فيقال لهم: ما دام كذلك فإليكم ما قاله علماء أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صح عن ابن عباس عند الحاكم وغيره وهو في الصحيحة للألباني برقم «٢٥٥٢»: أن ابن عباس فسر قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فسر الكفر في الآية بالكفر الأصغر الذي لا يُخرج من الملة، فقال: إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه إنه ليس كفر ينقل من الملة كفر دون كفر انتهى.

وذكر شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى [المجلد السابع / صفحة ٣٥]: أن هذا القول هو قول الصحابة ابن عباس وغيره، وأنه قول عامة السلف.

وقال ابن القيم في المدارج [المجلد الأول / صفحة ٣٤٥]: «هذا تأويل ابن عباس وعليه

الصحابة» انتهى.

ويدل على هذا أنه لا مخالف له من الصحابة ولا يصح عن أحد من الصحابة خلاف ذلك.

وأما التابعون فقد أخرج الطبري في تفسيره بأسانيد صحيحة عن طاووس وعطاء في تفسير الآية: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أن المراد بالكفر الكفر الأصغر ولا يُعلم لهم مخالف في زمانهم من التابعين.

وصح هذا القول عن الإمام أحمد والبخاري وغير واحد من السلف، وهو قول عامة السلف كما قال شيخ الإسلام.

فعلى هذا، فالمعنى الصحيح للآية هو تفسير السلف لا تفسيركم؛ لأنهم أعلم منكم ومن غيركم، وهذا أمر معلومٌ شرعاً وعقلا وواقعاً.

الوجه الثالث: ما تقدم من تفسير الصحابة والتابعين يدل على أن في المسألة شيء من التفصيل ذكره أهل العلم، وذلك أن من الحكم بغير ما أنزل الله ما يكون كفراً أكبر يخرج من الملة، ومنها ما يكون كفراً أصغر لا يخرج من الملة، وقد أجمع السلف على مسائل وصور يكون الحكم فيها بغير ما أنزل الله كفراً أكبر، وما سواها كفراً أصغر.

المسائل التي يكفر بها من حكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبر

جملتها ست مسائل:

المسألة الأولى: **الاستحلال**: بأن يقول الحكم بغير ما أنزل الله حلالٌ وجائز.

المسألة الثانية: **الجحود**: أن يجحد حكم الله وينكره.

المسألة الثالثة: **التكذيب**: لا يجحد وإنما يكذب، كأن يقول ليس هذا حكم الله.

المسألة الرابعة: **التفضيل**: أن يفضل حكم غير الله على حكم الله.

المسألة الخامسة: **المساواة**: أن يجعل حكم غير الله وحكم الله سواء.

المسألة السادسة: **اعتقاد عدم صلاحية حكم الله في مسألة أو زمن معين**، كأن يقول: نعم هذا حكم الله وهو حق، لكنه لا يتناسب مع هذه المسألة ولا يصلح لهذا الوقت.

فهذه المسائل مجمع على كفر من وقع فيها إذا توفرت فيه شروط التكفير، وانتفت موانعه.

شروط التكفير سبعة

١- أن يكون عاقلا.

٢- أن يكون بالغاً.

٣- أن يكون عالماً.

٤- أن يفعل ذلك باختياره.

٥- ألّا يكون متأولا؛ أي ألا يكون عنده شبهة في ذلك.

٦- أن يكون قاصدا لذلك الفعل ليس ناسياً أو مخطئًا بحيث أنه أراد شيئا فوقع في غيره من غير تعمد.

٧- أن يكون قادراً كمن يقدر على الصلاة فيتركها على القول بكفر تارك الصلاة.

موانع التكفير سبعة

١- أن يكون مجنوناً.

٢- أن يكون صبياً غير بالغاً.

٣- أن يكون جاهلًا.

٤- أن يكون مكرهاً إكراهاً معذرًا.

٥- أن يكون متأولاً بشبهة حصلت له.

٦- أن يكون عاجزًا.

٧- ألا يكون قاصداً للفعل، بأن يكون ناسياً أو غافلا أو سبق لسانه إلى شيء لا يريده.

وما سوى ذلك يكون كفراً أصغر، كأن يحكم بغير ما أنزل الله وهو يعتقد أنه مخطئ، وأن حكم الله هو الأفضل وهو الواجب، ولكن لمصلحة شخصية أو دنيوية حكم بغير ما أنزل الله فهذا لا يكفر لكن يكون قد ارتكب كبيرة من أعظم الكبائر وهو على خطر عظيم، وعلى هذا التفصيل درج السلف وأئمة الدين إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة، وهو الحق الذي لا ريب فيه، وبدون هذا التفصيل سيلزم تكفير عامة المسلمين لأن الآية عامة في ولي الأمر وغيره في كل مسألة يُحكم فيها بغير ما أنزل الله، لقوله عليه الصلاة والسلام «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**» حتى حكم الرجل مع زوجته، وأما على مذهب الخوارج وفهمهم فلن يبقى مسلم إلا شمله تكفيرهم بسبب فهمهم السقيم للأدلة وشذوذهم في توجيهها، فالحذر من هذا المزلق الخطير المفضي إلى الهلكة والإهلاك، سلمني الله وإياكم من مضلات الأهواء.

الشبهة الثانية: قالوا أنتم بهذا التفصيل تجوزون للحكام الحكم بغير ما أنزل الله، أو تسهلون لهم ذلك على الأقل.

والجواب: أن يقال لهم: أما تجويز ذلك لهم فمعاذ الله أن يقول به من له أدنى معرفة بالكتاب والسنة، والقول بذلك كفر مخرج من الملة، وأما أننا نسهل لهم ذلك فهذا تلبيس و كذب فإننا متفقون على أن الحكم بغير ما أنزل الله إذا كان في غير الصور الكفرية منكر عظيم وأن فاعله فاسق على خطر عظيم فأي تساهل أو تسهيل في ذلك والإسلام دين وسط بين الغلو والتمييع وإنزال الأدلة محلها هو الحق ومن حاول أن يصطاد في الماء العكر ويلوي النصوص على حسب هواه وشهوته إفراطاً أو تفريطاً فإنما يكسب إثمه على نفسه وربنا سبحانه يقول: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [سورة الرعد: ٤٠]. وقد أحسن من قال:

علي نحت القوافي من معادنها * وما علي إذا لم تفهم البقر**

الشبهة الثالثة: قالوا قد صح عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٤٤]. أنه قال: هي به كفر، فيحمل على الكفر الأكبر لأنه أطلق ولم يفصل.

والجواب: أن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قد فصّل كما في رواية الحاكم وغيره فيحمل ما أطلقه في هذه الرواية على ما فصّله في الرواية الأخرى وإلا لزم التعارض في كلامه، و مما يدل على أن ابن عباس أراد بذلك الكفر الأصغر نقل كبار أصحابه عنه كما تقدم، و أيضاً: قد جاء إطلاق مثل هذه اللفظة في أحاديث صحيحة، وحصل الإجماع على أن المراد بذلك الكفر الأصغر، كحديث «**اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في الأنساب و النياحة على الميت**» وبالإجماع أن الكفر هنا هو الكفر الأصغر، وقول ابن عباس يحمل على ذلك لا سيما وقد صح عنه التقييد بقوله «**كفر دون كفر**»، وهذا هو الفهم الذي فهمه عامة السلف، وتنزلاً معكم لو سلمنا بالتعارض بين قولي ابن عباس، فسيلزمنا حينئذٍ الجمع أو الترجيح، والجمع ممكن

بأن يحمل ما أطلقه على ما فصله، فإن أبيتم فالراجح ما فصله بالقرائن التي من أهمها: أن الرواية المفصلة هي رواية كبار أصحابه عنه، ومنها: أنها هي الرواية الموافقة لقول غيره من الصحابة وأئمة التابعين لهم بإحسان، والله أعلم.

الشبهة الرابعة: قالوا قد نص شيخ الإسلام على أن كلمة «الكفر» إذا عُرِّفت بـ (ال) انصرفت إلى الكفر المعروف وهو المخرج من الملة؟

والجواب: هذا من جهلكم بالشرع وباللغة وبكلام أهل العلم، فإن هذا الاستقراء لشيخ الإسلام لكلمة «الكفر» لا لكلمة «الكافر» والآية بلفظ «الكافر» الكافرون جمع كافر، وهناك فرق كبير بين كلمة «الكفر»، وكلمة «الكافر» فكلمة «الكفر» مصدر [كَفَرَ - يكفر - كفراً] والمصدر يدل على الفعل وحده ، وكلمة «الكافر» اسم فاعل يدل على الفعل وصاحبه الذي قام به فالمصدر يدل على الحكم العام، واسم الفاعل يدل على الحكم الخاص المعين، ومن قواعد السلف أنه ليس كل من فعل الكفر كافرًا ، وفرق بين الحكم الكلي و الحكم المعين، فلا تجمعوا حشفاً وسوء كيلة.

الشبهة الخامسة: قالوا ألم يقل الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة النساء:٦٥].، قالوا: فنفي الإيمان في قوله ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يدل على الكفر، وأن من لم يتحاكم إلى شرع الله كافر؟

والجواب: نفي الإيمان هنا المراد به نفي كمال الإيمان وقوته، لا نفي أصل الإيمان، ويدل على ذلك أدلة كثيرة منها الأحاديث التي فيها لفظ «لا يؤمن» وهي كثيرة أشهرها حديث أنس في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

فعلى قاعدتكم هذه سنحكم بالكفر على أكثر المسلمين؛ لأن كثيراً من المسلمين لا يحبون لإخوانهم كل ما يحبونه لأنفسهم، وكذا قل في سائر الأحاديث التي مثل هذا، كقوله عليه

الصلاة والسلام: «**والله لا يؤمن ثلاثاً**، قالوا من يا رسول الله؟ قال: **من لا يأمن جاره بوائقه**» فهل مؤذي الجار عندكم كافر، فلو حملنا كلمة لا يؤمن على الكفر لكفر بعضنا بعضاً وما أظنه سيسلم مؤمن!

إذاً فمعنى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي لا تبلغوا كمال الإيمان.

ثم ثانياً: هذه الآية نزلت في قضية الأنصاري مع ابن الزبير لما تحاكموا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال الأنصاري لرسول الله: أقضيت له يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟ فنزلت الآية في هذا الأنصاري، ولم يثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أحدًا من أصحابه كفّر هذا الأنصاري وإنما فهموا الآية على نفي كمال الإيمان وأن المقصود بها شدة الزجر وخطورة الوقوع في هذه المعصية، والله أعلم. وأما قول من قال بأنه منافق فلا يصح وعلى القول بصحته دليل عليكم لأن المنافق الاعتقادي كافر.

الشبهة السادسة: استدلوا بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [سورة النساء:٦٠]، قالوا: فدلت الآية على أن تحاكمهم إلى الطاغوت سببه أن إيمانهم مجرد زعم لا حقيقة، وهذا يدل على كفرهم فكل من تحاكم لغير الله وحكم بغير ما أنزل الله فقد تحاكم إلى الطاغوت فهو كافر؟

والجواب من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: هذه الآية نزلت في المنافقين النفاق الأكبر المخرج من الملة، وليس كل من وقع في بعض صفات المنافقين يكون كافراً كفراً أكبر، لما في الصحيحين عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر «**آية المنافق ثلاث**» وفي حديث ابن عمرو «**ومن كان فيه خصلة منهم كان فيه خصلة من النفاق**» فعلى إطلاقكم يلزم تكفير كل مسلم وقع في واحدة من هذه الأمور «كذب أو خيانة أو خلف وعد» وهذا لم يقل به أحد من السلف.

الوجه الثاني: أن الآية دلت على أن هؤلاء لم يؤمنوا أصلا بل هم كفار في الحقيقة، وإنما تظاهروا بالإسلام نفاقاً لمقاصد سيئة فكان تحاكمهم إلى الطاغوت من نتائج كفرهم لا أنهم كانوا مؤمنين فلما تحاكموا إلى الطاغوت كفروا بل هم كفار قبل ذلك، لقوله تعالى: "يزعمون" فإيمانهم زعم من أساسه، والكلام معكم حول المؤمن حقيقة.

الوجه الثالث: إن من تكفرونهم من حكام المسلمين مطلقاً في هذه المسألة الأصل فيه الإسلام حقيقة وإنما تحاكم أو حكم بغير ما أنزل الله لمصلحة وشهوة مع اعترافه بخطئه فكيف تجعلونه في الحكم كالكافر الأصلي!

الشبهة السابعة: استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [سورة المائدة:٥٠]. قالوا: فكل من حكم بغير ما أنزل الله فقد حكم بحكم الجاهلية، وهذا كفر؟

والجواب أن يقال: ليس كل ما كان من أمر الجاهلية يكون كفراً أكبر، وإنما منه ما هو كفر أكبر، ومنه ما هو فسق، ومنه ما هو معصية وإلا لزمكم تكفير كل مسلم وقع في أمر من الأمور التي أخبر عنها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها من أمور الجاهلية كقوله عليه الصلاة والسلام: «**أربع في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة**» رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري، والتكفير بهذه الأمور المذكورة في الحديث لم يقل بها أحد من السلف بل أجمعوا على أنها معاصي لا يكفر بها المسلم ولو وُصفت بأنها من أمور الجاهلية.

إذاً: فتحمل الآية على التفصيل المتقدم في الحكم بغير ما أنزل الله، والله أعلم.

الأصل الثاني من أصول الخوارج

وهو ناتج عن الأصل الأول: فقالوا يجب الخروج على ولاة الأمور لكفرهم أو ظلمهم.

والخارجون على ولاة الأمر على قسمين:

القسم الأول: من يرون وجوب الخروج على ولي الأمر المسلم لأنه صار كافراً بأمور قام بها ومرد هذه الأمور التي يكفرون بها الحكام إلى أمرين:

الأمر الأول: قالوا لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله: وهذا تقدم بيانه والرد على شبهاتهم فيه.

الأمر الثاني: قالوا لأنهم يوالون الكفار والله جل وعلا قد حكم بالكفر على من يوالي الكفار فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [سورة المائدة:٥١].

الشاهد ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ قالوا: فصاروا كفاراً بنص القرآن.

والجواب عن هذا الاستدلال من وجهين:

الوجه الأول: أن الله قد ذكر تحريم موالاة الكفار في كتابه الكريم في أكثر من موضع، ففي هذه الآية من سورة المائدة قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [سورة المائدة:٥١].، وفي سورة التوبة: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [سورة التوبة:٢٣].، ولم يقل إنه منهم، وفي الآية الأولى من سورة الممتحنة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [سورة الممتحنة:١].، فخاطبهم باسم الإيمان وسماهم مؤمنين، مع أن الآية نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة لما أرسل إلى

مشركي قريش فحصل منه نوع موالاة كما في الآية ﴿ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ فاختلاف الحكم في هذه الآيات يدل على أن مولاة الكفار ليست في درجة واحدة، وأن الحكم يختلف من شخص لآخر حسب المقاصد والنيات، وإلا سيلزم ضرب الآيات بعضها ببعض، فجمع العلماء بين هذه الآيات وما فيها من الحكم على حسب سبب نزولها وسياقها وعلى ما دلت عليه الأدلة الأخرى في صحيح السنة فقالوا: موالاة الكفار على قسمين:

١- **موالاة كبرى**: وهي حب الكفار لدينهم وحب انتصارهم على أهل الإيمان، وظهورهم على أهل الإسلام فهذا كفر باتفاق وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾.

٢- **موالاة صغرى**: وهي الموالاة التي تكون بسبب دنيا للحصول على دنيا ومصالح شخصية مع بغض دينهم وتمني هلاكهم وحب ظهور المسلمين عليهم فهذه لا يخرج صاحبها من الإسلام لكنه يقع في الفسق بسبب موالاته لهم ولو في أمر الدنيا، وهذا النوع يدل عليه أوائل سورة الممتحنة. ففُهم من مناداة الله لمن حصل منه ذلك وهو حاطب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ باسم الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فدل على أن من الموالاة ما ليس كفراً، وكان سبب نزول آية الممتحنة ما حصل لحاطب في مراسلته للمشركين يخبرهم بغزو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لهم فأطلع الله نبيه على ذلك فلما سأل حاطباً عن ذلك قال: يا رسول الله والله ما هو حب الكفر وكراهية الإسلام ثم بين له عذره، وأنه أراد أن يتخذ عندهم يداً تحسباً فيما لو حصلت الهزيمة، فلم يكفره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بل أنكر على عمر لما قال دعني أضرب عنق هذا المنافق، فأنزل الله الآية وناداه باسم الإيمان، وسمى ما فعله مودة.

فلو قال قائل: هذا خاص بحاطب لأنه من أهل بدر، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «**لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

والجواب أن يقال لهم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهذه قاعدة متفق عليها

فالآية نزلت في شأن حاطب إلا أنه تشمل كل من وقع في مثل هذا الأمر لأن النداء في أولها عام وبلفظ الجمع فدل على أن الآية عامة، والله أعلم.

القسم الثاني: ممن يرون الخروج على الحكام ولا يُكفرون الحكام ولكن يرون الخروج عليهم لظلمهم وجورهم وإن كانوا مسلمين، واستدلوا على ذلك بأمور منها:

فعل بعض السلف كابن الزبير مع مروان، والحسين مع يزيد، وأهل المدينة كذلك مع يزيد، وعبد الرحمن بن الأشعث مع الحجاج، قالوا وهذا قول جمهور السلف بجواز الخروج على ولي الأمر المسلم إذا كان ظالماً.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: هذا ليس قول جمهور السلف وعزوه للجمهور فيه تلبيس وكذب، بل جمهور الصحابة والسلف على خلاف هذا، وإنما كان فيه خلاف يسير ثم ارتفع الخلاف ووقع الإجماع على تحريم الخروج على ولي الأمر المسلم، لما حصل بسبب الخروج من مفاسد دينية ودنيوية وها هي كتب السلف طافحة بالتحذير من ذلك.

الوجه الثاني: كبار الصحابة وأفاضلهم أنكروا هذا على من فعله منهم فقد أنكر سائر الصحابة على الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وناصحوه بعدم الخروج صح ذلك عن ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبي سعيد وجابر وأبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم أنكروا على الحسين وناصحوه، وحذروه من مغبة ذلك.

أما أهل المدينة فقد أنكر عليهم ابن عمر ومن معه من الصحابة في المدينة، وأنكر عليهم زين العابدين علي بن الحسين ولم يشارك معهم في ذلك الأمر أحد من الصحابة.

وأما ابن الأشعث وإن كان قد خرج معه طائفة من العلماء والقراء إلا أن كثيراً منهم ندم على ذلك، وقد أنكر عليهم عامة العلماء في كثير من بلاد الإسلام وغلطوهم في ذلك.

وأما بالنسبة لعبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع مروان بن الحكم فابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يحصل منه خروج أصلا على ولي الأمر وإنما جاور الحرم بمكة ولم يبايع يزيد بن معاوية حتى مات يزيد واستخلف ولده معاوية بن يزيد فبقي أشهر ثم مات فحينئذ دعا ابن الزبير لنفسه بالخلافة فبايعه المسلمون في سائر بلاد الإسلام ما عدا أجزاء من الشام قاموا بمبايعة مروان بن الحكم بعد أن بايع المسلمون ابن الزبير فكان الخليفة الشرعي هو ابن الزبير، وقد سماه ابن كثير وغيره أمير المؤمنين.

الوجه الثالث: على فرض التنزل معكم، ما هي النتائج التي حصلت بخروج من تقدم ذكرهم سواء الحسين أو أهل المدينة أو ابن الأشعث؟

الجواب: حصل من المفاسد في الدماء والأموال والأعراض أضعاف أضعاف ما كان يراد إزالته أو إصلاحه فلهذا استقر الأمر بعد ذلك فأجمع السلف على عدم جواز الخروج على ولاة الأمور المسلمين وإن جاروا بل يُصبر عليهم للمصالح المعتبرة في الدين والدنيا، قال شيخ الإسلام في منهاج السنة [الجزء الثالث، صفحة: ٣٩١]: «ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من المفاسد ما هو أعظم من الفساد الذي يراد إزالته»، ومن قواعد الإسلام المهمة جلب المصالح ودرء المفاسد.

الوجه الرابع: مع ما تقدم يقال لهم: أيهما أولى بالاتباع والاستدلال قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأوامره في هذا الباب أم فعل بعض السلف؟؟

فما فعله بعض السلف اجتهاد منهم أخطأوا فيه حكم عليهم بالخطإ فيه جمهور من عاصرهم من السلف، وتأكد هذا الخطأ بما حصل من وراء ذلك من المفاسد فيُعتذَر لهم فيما أخطأوا فيه ولا يتابعون على الخطأ؛ لأن قول الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقدم على قول كل أحد لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات:١]. والله أعلم.

فهذه أهم الشبهات التي يلبس بها أهل الهوى والضلال على أتباعهم، ويجرونهم بها إلى مستنقعات البدع والضلالات، حاولت جاهداً بيانها حسب اطلاعي وفهمي مستفيداً مما كتبه أهل العلم في ذلك، عسى الله أن يجعل في ذلك خيراً ويزيل بها اللبس عمن شاء من خلقه، ورجائي بربي أن يجعلها لوجهه خالصة، ولعباده نافعة، والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل. والله أعلم.

وكان الفراغ من تعديله ضحى يوم الأحد ٢٨/ صفر/ ١٤٤٦هـ

والحمد لله رب العالمين.

كتبه
أبو حذيفة زكريا بن
حميد الصلاحي الحبيشي
اليمن – ساحل حضرموت –مدينة قصيعر–مسجد عمر بن الخطاب

أهم المراجع

١- القرءان الكريم.
٢- صحيح البخاري وصحيح مسلم.
٣- السنن الأربع.
٤- مسند أحمد.
٥- السلسلة الصحيحة والضعيفة.
٦- صحيح الجامع .
٧- إرواء الغليل.
٨- الشفاعة للوادعي.
٩- تفسير الطبري.
١٠- تفسير ابن كثير.
١١- تفسير البغوي.
١٢- مجموع الفتاوى.
١٣- منهاج السنة.
١٤- معارج القبول.
١٥- بدائع الفوائد.
١٦- حادي الأرواح.
١٧- مختصر الصواعق المرسلة.
١٨- شرح الطحاوية لابن أبي العز.
١٩- شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ.

الفهرس

المقدمة..... ٣
المبحث الأول: التوحيد..... ٥
المبحث الثاني: الشرك..... ١٢
أقسام الشرك..... ١٥
أقسام الشرك..... ١٩
المبحث الثالث: الأسماء والصفات..... ٢٠
قواعد وضوابط في باب الأسماء الحسنى..... ٢٠
قواعد وضوابط في باب صفات الله..... ٢٣
أقسام الصفات..... ٢٤
مذاهب أهل التعطيل في باب الأسماء والصفات..... ٢٧
مذاهب أهل التعطيل..... ٢٨
المبحث الرابع: الإيمان..... ٣١
عبارات السلف في تعريف الإيمان تدور على أربعة أقوال..... ٣١
الفرق الضالة في باب الإيمان..... ٣٢
المبحث الخامس: الشفاعة..... ٣٧
شروط الشفاعة..... ٣٧

الفرق الضالة في باب الشفاعة..... ٣٨
مواطن الشفاعة..... ٣٨
أقسام الشفاعة..... ٤١
الشفاعة المثبتة..... ٤٢
الشفاعة لرفع الدرجات في الجنة..... ٤٣
الشفاعة بعدم دخول النار وتتنوع إلى تسع شفاعات..... ٤٤
الشفاعات المحتملة لعدم دخول النار أو الخروج منها..... ٤٥
شبهات منكري الشفاعة والرد عليها..... ٤٦
المبحث السادس: عذاب القبر ونعيمه..... ٥١
شبهات منكري عذاب القبر..... ٥٦
المبحث السابع: حجية السنة والرد على من لا يرى الاستدلال بالسنة إما إنكاراً لها وإما بإثارة الشبهات حولها..... ٦٢
الأدلة من القرآن على حجية السنة..... ٦٣
الشبه التي يثيرها منكرو السنة والمشككون فيها..... ٦٥
المبحث الثامن: رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة..... ٧٥
الأدلة من القرآن على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة..... ٧٥
الأدلة من السنة على رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة..... ٧٦
الفِرَق الضالة المخالفة للحق في مسألة الرؤية..... ٧٧
شبهات منكري الرؤية من الجهمية والمعتزلة والرد عليهم..... ٨١
المبحث التاسع: صفة الكلام لله سبحانه وتعالى..... ٨٦

معتقد أهل السنة في صفة الكلام لله سبحانه..... ٨٨
أقوال الفرق الضالة في كلام الله سبحانه وتعالى..... ٨٩
شبه القائلين بأن القرآن مخلوق..... ٩١
المبحث العاشر: طاعة ولاة الأمور وكيفية التعامل معهم..... ٩٩
شبهات الخوارج على ولاة الأمور والرد عليها..... ١٠٣
شبهات الخارجين على ولي الأمر المسلم..... ١٠٤
مسألة تكفير الحكام..... ١٠٤
المسائل التي يكفر بها من حكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبر..... ١٠٦
شروط التكفير سبعة..... ١٠٧
موانع التكفير سبعة..... ١٠٨
الأصل الثاني من أصول الخوارج..... ١١٣
أهم المراجع..... ١١٨
الفهرس..... ١١٩

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف فندق الريان
+٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤ - +٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢
عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف محطة النهدي
+٩٦٧٧٧٠٠١٢٥٢٢
حضرموت الحامي - جوار مسجد انور - الشارع الشرقي من النادي
+٩٦٧ ٧٧٧٣٤٩٥٢٣ - +٩٦٧٠٥٣٤١٥٩٨
alshafibooks@gmail.com